العلاقات المصرية ـ اللبنانية

فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٤٠

الدكتور عمر عبد العزيز عمر

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهور شخصيات كان لها تأثير على مسار الأحداث فى المشرق العربى . فلقد عاصر الأمير بشير الشهابى الثانى (١٧٨٨ – ١٨٤٠) ، أمير لبنان ، فترة حكم محمد على فى مصر (١٨٠٥ – ١٨٤٨) ، وتوطدت بين الاثنين علاقة متينة ظهرت نتائجها خلال الحملة المصرية على بلاد الشام . وكان لكل منهما مشاكله الداخلية وأطماعه الشخصية التى انعكست علاقاتهما بالدولة العثمانية منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر. وحاول الأمير بشير الثانى – عندما تراكمت عليه المشاكل الداخلية – أن يستفيد من قوة محمد على وأن يطلب منه الدعم لما كان له من تأثير ونفوذ كبيرين فى الدولة العثمانية . ولقد أسفرت وساطة محمد على فى العشرينات من القرن التاسع عشر عن إصلاح ذات البين بين الأمير بشير الثانى والدولة العثمانية . ويهدف هذا البحث إلى كشف النقاب عن بداية العلاقة بين محمد على – مؤسس النهضة الحديثة فى مصر – والأمير بشير الشهابى الثانى وأسبابها وتطورها إلى أن تم فرض السيادة المصرية على كل بلاد الشام لمدة تسع سنوات متوالية . ويناقش هذا البحث ، كذلك التجربة المصرية فى بلاد الشام ، وموقف اللبنانيين من الحكم المصرى ، ودور الأمير بشير الثانى الذى تحالف مع محمد على وكان عوناً له بشكل واضح .

بعد وفاة الأمير أحمد المعنى فى عام ١٦٩٧ ، انتقل الحكم فى لبنان إلى الأسرة الشهابية (١) لصلة النسب بين الأسرتين . وظل لبنان ، حتى أواخر القرن الثامن عشر ، يخضع لسيطرة ولاة عكا . فبعد هزيمة ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥ ، عين العثمانيون على ولاية صيدا المغامر البشناقى أحمد الجزار ، الذى اتخذ من عكا مقراً له ، وأصبح الشخصية المسيطرة على بلاد الشام حتى وفاته فى عام ١٨٠٤ . وعزم الجزار على وضع جبل لبنان تحت سيادته ؛ فعزل بيروت عن جبل لبنان ، وعمد إلى اضعاف الأمير يوسف شهاب (١٧٧٠ — ١٧٨٨) بتحريض أخويه وأنسبائه عليه . وتدخل أيضاً فى النزاع بين الأحزاب فى لبنان ، فأيد الجنبلاطيين ضد اليزبكيين (٢) وشجع دسائسهم ضد الأمير يوسف . وهكذا ساءت أحوال الإمارة اللبنانية بعد عام ١٧٧٨ ، إذ ثار بعض الأمراء الشهابيين ضد الأمير يوسف وطالبوه بالإمارة فى السنوات العشرة التالية ، وكان يؤيدهم فى ذلك أحمد الجزار والجنبلاطيون . وبحلول عام ١٧٨٨ ، سادت البلاد حرب أهلية تسنى فيها للجزار ان يهاجم الأمير يوسف ، الذى هزم وفقد كرسى الإمارة ، ولقى حتفه شنقاً فى عكا . وعين الجزار نسيبه بشير الشهابى ، النصرانى المولد ، خلفاً له ، وعرف ببشير الثانى . وأصبح بشير الشهابى الثانى ، بتأييد الجزار والجنبلاطيين الدروز ، أميراً على لبنان . وهكذا تضافرت القوى الداخلية والخارجية على رفعه إلى كرسى السلطة . وكان من العسير على الأمير بشير الثانى ، بعد عام ١٧٩٨ ، ألا يقحم لبنان فى المسألة الشرقية . فلم تترك أحوال بلاد الشام والسلطنة العثمانية وتدخل أوروبا المباشر فى لبنان ، لم تترك له حرية التصرف . كذلك أجبرت الأوضاع الاقطاعية أمير لبنان على أن يتحالف مع قوى خارجية تمكنه من التغلب على خصومه فى الداخل . ولعل حاكماً آخر غير الأمير بشير كان يترك الأمور تجرى كيفما اتفق ، متكلا على الأقدار . أما بشير فأراد ، بسبب طموحه ، أن يجعل من من الإمارة اللبنانية عنصراً فعالا فى الشئون الإقليمية والدولية ، فحالف قوى وابتعد عن أخرى . وأظهر مهارة فى تسيير دفة الأمور ، فاحتفظ

لنفسه بإمارة لبنان اثنتين وخمسين عاماً ، وهى مدة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ هذه الإمارة . لكن التزاماته وارتباطاته الخارجية أدت فى النهاية إلى سقوطه ، وإلى انهيار الإمارة وإغراق لبنان فى الفوضى والقلاقل (٣) .

وكان واضحاً أن يد الجزار هى التى رفعت بشير الثانى إلى إمارة لبنان ، لكن الأمير الجديد بدأ يشعر بضغط عكا حالما استتب له الأمر فى دير القمر . غير أن احتلال نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ ، ثم زحفه على فلسطين ، قد أراح بشير الثانى إلى حين من اهتمام الجزار . وعندما حاصر الفرنسيون عكا فى عام ١٧٩٩ ، طلب الجزار من الأمير بشير مساعدته ، لكنه اعتذر . كما اعتذر بشير عن مساعدة نابليون بونابرت رغم وعوده المتكررة بتحقيق «استقلال الأمة الدرزية» (٤) . ولقد أثار اقتراب الحملة الفرنسية من لبنان التوتر بين الموارنة ، أصدقاء فرنسا ، والدروز ، غير أن بشيراً حرص على تهدئة خواطر الدروز بالاعتذار عن مساعدة الفرنسيين . وهكذا آثر ألا يتعرض لثأر الجزار إذا باءت الحملة الفرنسية بالفشل . ولكن الجزار المنتصر أبى أن يغفر له ذلك ، وصمم على الاقتصاص منه . ففى السنوات الأربع التالية بلغ تدخله فى شئون لبنان ذروته . ووقع لبنان فى حالة من الفوضى والاضطراب . وبلغ عدد الشهابيين الذين أقامهم الجزار على كرسى الإمارة ، لمناوأة الأمير بشير ، خمسة . ولما تبين بشير الثانى أنه لا يمكنه الدفاع عن مركزه فى لبنان ، فر إلى قبرص فى عام ١٨٠٠ على إحدى بوارج السير سدنى سميث ، قائد الأسطول البريطانى فى شرق البحر المتوسط . وبعد غياب دام عدة أشهر ، عاد بشير الثانى إلى لبنان ، وبقى تحت رحمة الجزار حتى توفى هذا الأخير فى عام ١٨٠٤ .

وأحدثت وفاة أحمد الجزار فراغاً كان على بشير الثانى أن يملأه . ووجد بشير الثانى نفسه طليقاً فأخذ فى سحق أعدائه فى الداخل ، وفى تركيز السلطة فى يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها . وفيما بين عامى ١٨٠٤ و ١٨١٩ ،

قدر لبشير الثانى أن يصير سيد لبنان المطلق ، وأن يقف فى طليعة أنصار العثمانيين فى بلاد الشام . وتحالف مع سليمان باشا ، والى عكا الجديد ، وتمتع بمؤازرته طوال السنوات الخمس عشرة التى تلت . وعندما وثق من قوة مركزه فى لبنان ، قام بمساعدة العثمانيين فى مناطق أخرى . ففى عام ١٨١٠ ، غزا الوهابيون سورية واستولوا على دمشق ونهبوها . وبدلا من أن يصد حكام الشام قوى الوهابيين تلبية لأوامر الدولة العثمانية نجد بعض هؤلاء الحكام يأخذون بتعاليم الوهابيين (٥) مثل يوسف كنج ، والى دمشق. ونتيجة لذلك تحالف سليمان باشا ، والى صيدا ، مع بشير الشهابى ضد يوسف كنج ووضعا خطة لطرده من دمشق . وأسند الباب العالى باشوية دمشق سراً إلى سليمان باشا ، وترك له الطريقة التى يراها مناسبة لوضع نفسه فى حكم الولاية . واتفق سليمان باشا وبشير الثانى على مهاجمة يوسف كنج عندما يتوجه على رأس قواته لمقاتلة الوهابيين فى مكان على طريق الحج . وقد يبدو غريباً أن يوسف كنج الذى تأثر بتعاليم الوهابيين توجه لمحاربتهم . والحقيقة أن يوسف كنج كان يرى فى التعاليم الوهابية وسيلة لانقاذ المنطقة من تدهور المسلمين . ولكنه لم يكن موافقاً على الطريقة العشائرية التى أراد الوهابيون بها نشر تعاليمهم . ولكى ينفذ خطته فى ضرب الحركة الوهابية ، أرسل يوسف كنج إلى محمد على ، والى مصر ، رسالة تشتمل على خطة ثلاثية تقوم بها العراق والشام ومصر لتوجيه ضربة قاضية إلى الدرعية معقل الموحدين (٦) . وقد كتب يوسف كنج فى رسالته يقول : « بما أن مهمة مقاتلة هؤلاء الخوارج والعمل على اجلائهم عن الأرض المقدسة المذكورة لمهمة جد عظيمة تتطلب أن يساهم فيها كل مخلص صادق غيور على عرضه وشرفه مسارع إلى أداء واجبه نحو دينه وملته بصدق واخلاص فان دولتكم تطلبون منى أن أساهم فيها أنا كذلك وأساعدكم على أن تكون مساهمتى ومساعدتى بتوحيد الجهود فيما بيننا وبالاتفاق بيننا على ميعاد مناسب ومبكر نضرب فيه العدو ضربتنا فى آن واحد كل واحد منا من جانبه بالعتاد والقوة اللذين يكون قد أعدهما لتأدية هذه المهمة لأننا إذا وحدنا جهودنا فى تأدية

هذه المهمة وساعدنا بعضنا البعض وضربنا العدو فى آن واحد نكون حينئذ قد ملكنا الوسائل الكفيلة لتدمير العدو ودحره من كل جانب وأيضاً أسباب نصرة دين مولانا وسيدنا وصفوة خلق الله فى الدنيا والآخرة محمد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وأسباب اسعاد دولتنا ونيل رضاء الله تعالى عنا وحيازة اعجاب جلالة السلطان بعملنا وتقديره الحسن له تقديراً عظيما » (٧) .

وبينما كان يوسف كنج يستعد لمحاربة الوهابيين ، كان الباب العالى قد غدر به وأسند الولاية إلى سليمان باشا ، والى صيدا . وهاجم كل من بشير الثانى وسليمان باشا دمشق (٨) .

فر يوسف كنج لاجئاً إلى صديقه محمد على . وقد تألم محمد على من هذه الحادثة لأنه كان يثق بيوسف كنج فى تقديم معونة كافية للقوات التى كان يزمع محمد على إرسالها إلى الحجاز ، لأنه كان على عداء مع سليمان باشا لأنه من المماليك ، وأصبح يحمى المماليك الفارين من وجه محمد على وبالتالى أصبح سليمان باشا — فى هذه الظروف — شوكة فى جنب مصر وقادراً على أن يضرب قوات محمد على فى الحجاز من خلف . وأرسل محمد على يطلب من الباب العالى عزل سليمان باشا عن ولاية الشام واسنادها إلى يوسف كنج حتى يقوم محمد على بمهمته ضد حركة الموحدين (٩) . ولما يئس محمد على من اقناع الباب العالى بمؤامرات سليمان باشا والعفو عن يوسف كنج وإعادته إلى دمشق ، كتب محمد على فى عام ١٨١٣ إلى الباب العالى موضحاً المتاعب الضخمة التى تتعرض لها الحملة التى تقاتل الموحدين فى الجزيرة ، وضرورة وجود تعاون بين مصر والشام لانجاح هذه الحملة ، مقترحاً اسناد ولاية الشام إليه هو حتى يتمكن من القيام بواجبه فى الحجاز (١٠) . ولكن الباب العالى رفض مطالب محمد على وظل سليمان باشا فى منصبه حتى عام ١٨١٩ . ولذلك فبمجرد أن أنهى محمد على مهمته ضد الوهابيين واحتلال عاصمتهم الدرعية فى عام ١٨١٨ ، رفض بطريقة لا تثير غضب الباب العالى ارسال قواته لإنقاذ العراق من الغزو الفارسى له فى عام ١٨٢١ — ١٨٢٢ (١١) .

وفى عام ١٨١٩ توفى سليمان باشا ، صديق بشير الشهابى الثانى ، وحل عبد الله باشا محله فى ولاية صيدا ، وهو نجل أحد كبار رجال الدولة فى الآستانة . وكان عبد الله باشا هذا شاباً طموحاً ، نشيطاً فى الحادية والعشرين من العمر . لذلك أبى ، كالجزار قبله ، أن يرى أميراً حاكماً قوياً فى لبنان ، فصمم على اخضاع الأمير بشير والحط من قدره . فما أن تم تعيينه فى منصبه حتى طالب الأمير بدفع ضريبة باهظة . وحين احتج الأمير ، وضع عبد الله باشا يده على جميع رعايا الأمير اللبنانيين الذين تصادف وجودهم فى صيدا وبيروت ، وعددهم نحو مائة وسبعين شخصاً . واضطر بشير الثانى إلى قبول طلب الباشا ، فاستدان مالا لدفع ما فرض عليه ، وأوكل إلى عملائه جمعه من البلاد . لكن ما إن باشر هؤلاء عملهم حتى أعلن أهالى المتن وكسروان العصيان ، بتحريض حسن وسلمان شهاب ، وهما من أنسباء الأمير الحاكم . ولما عجز بشير عن جمع الضرائب والقضاء على العصيان ، تنازل عن الإمارة فى عام ١٨٢٠ وغادر البلاد إلى حوران . فصدر أمر عبد الله باشا بتعيين حسن وسلمان شهاب ليخلفاه (١٢) . ولم يمض زمن طويل حتى أدرك عبد الله باشا خطأه . إذ ما إن خلت البلاد من الأمير بشير الثانى حتى عمت فيها الفوضى لأن الأميرين اللذين حلا محله عجزا تمام العجز عن إدارة دفة الحكم . ووجد عبد الله باشا أنه لامفر من الاستعانة بالأمير بشير الثانى للسيطرة على لبنان .

وعندما تنازل الأميران حسن وسلمان عن الإمارة فى عام ١٨٢١ ، اجتمع أعيان لبنان وأعادوا انتخاب الأمير بشير الثانى بموافقة عبد الله باشا . وبمجرد عودة الأمير إلى لبنان ، جرد حملة ضد العصاة فى مختلف المناطق ، فسحقهم ونشر الأمن والنظام فى البلاد . وتحولت العداوة القديمة بين بشير الثانى وعبد الله باشا إلى صداقة مما دفع الأمير إلى التورط مع الباشا فى المشاكل الخارجية . فقد كان عبد الله باشا يطمع فى ولاية دمشق ، كما طمع فيها الجزار من قبل . وكانت ولاية دمشق ، فى ذلك الوقت ، تحت حكم رجل طموح هو محمد درويش باشا . وكانت بين الأمير بشير الثانى ودرويش باشا عداوة يعود سببها إلى أن درويش باشا طمع فى السيطرة على البقاع

وانتزاعه من تحت سيطرة الأمير بشير الثانى ، فأرسل عساكره إليه فى عام ١٨٢٠ لتثبيت دعواه . لكن رجال الأمير تصدوا لجند الوالى وردوهم على أعقابهم (١٣) . ولما وقع الخلاف بين درويش باشا وبين عبد الله باشا فى السنة التالية ، سارع الأمير بشير إلى تأييد عبد الله ظناً منه أن الباب العالى سيفعل ذلك أيضاً . وبلغت به الحماسة لاظهار ولائه لوالى صيدا أنه سار على رأس رجاله لمهاجمة دمشق ، نزولا على طلب حليفه ، فسحق عساكر درويش باشا فى معركة المزة فى ٢٦ مايو عام ١٨٢١ . ولكن بشيراً أخطأ التقدير ، فما أن اتضحت نتيجة تلك المعركة حتى تدخل الباب العالى ، فندد بعبد الله باشا وأمر بنقله من صيدا ، وأضيفت ولاية صيدا إلى درويش باشا . وأذاع درويش باشا منشوراً على اللبنانيين أعلن فيه قرار الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا ونفيه والإنعام عليه «بمناصب صيدا وطرابلوس واللاذقية ويافا وغزه والرملة واللد وتوابعهما مع ابقا مناصب الشام وايالاتها ..» (١٤) . وقال أيضاً بأنه طلب من الأمير بشير الثانى المثول بين يديه فأبى ولذلك « رفعنا يده من التزام الجبل وجبيل» . وعندما رفض الأمير بشير الثانى مصالحة درويش باشا على شروطه ، اختار لنفسه مغادرة البلاد إلى مصر ، تاركاً إمارة لبنان لنسيب له يدعى عباس شهاب . وذهب عباس شهاب لمقابلة درويش باشا فى مرج البقاع ، «وحضر الأمير عباس إلى قدام درويش باشافشرفه فى الخلع الفاخرة على حكومة الجبل وكسروان وبلاد جبيل حسب المعتاد» .

قرر بشير الثانى بعد أن تنازل عن الحكم الذهاب إلى مصر . وأرسل إلى عبد الله باشا يستأذنه فى ذلك ، فأجابه «أنه يبقى مدة قليلة فى البلاد ويعين عسكراً وهو يدفع كلما يحتاج من المال » . ولكن بشيراً طلب منه أن يأذن له بالسير إلى مدينة بيروت ، فأذن له وأرسل الأوامر إلى أهالى بيروت والمتسلم بها «بأن تكون البلدة بيد الأمير بشير ووجه له الذخاير والجبخانا وخمسين ألف قرشاً . ولكن بشير الثانى واجه مقاومة شديدة من أهالى بيروت صورها حيدر أحمد الشهابى كما يلى :

«وقد كان الأمير بشير باطناً لا يرغب الخروج من بلاده وقد كان عازماً على محاربة عسكر الشام . حيث انه كان عالماً بعدم قدرتهم على الحرب كما سبق لهم . ثم فى ١٠ فى ذى القعدة الموافق إلى ٢٦ تموز حساب شرقى سار الأمير بشير من بتدين طالب مدينة بيروت وصحبته أولاده ونحو ألف نفر وهم الذين من خدمه وبات تلك الليلة فى الغرب . ثم سار إلى حرش صنوبر بيروت وبوصوله خرج لملتقاه متسلم المدينة . وهو خليل كاشف والشيخ عبد اللطيف مفتى افندى والشيخ أحمد الغر القاضى . وجميع اعيان البلد وترحبوا به وحيث اهالى بيروت لا يرضون تملك اهل الجبل على بلدهم وقد كانوا بغضون ذلك مختلفين الآراء .ومقتسمين فقسمة منهم كانت تميل إلى الشيخ عبد اللطيف المفتى . والبعض منهم يميلون إلى الشيخ أحمد الغر القاضى المذكور . وبعد ملتقاهم للأمير بشير فى حرش صنوبر بيروت قدم الأمير إلى المتسلم حصاناً وإلى المفتى والقاضى بقج أواعى مقصب . ثم اجتمعوا جميعاً وعزموا على عدم دخول الأمير إلى المدينة وطردوا اتباع الأمير ورصدوا أبوابها . واشاروا على عصاوة عبد الله باشا ونادوا باسم درويش باشا .

«فلما نظر الأمير بشير ما أبدوه أهالى بيروت من العصاوة ارسل اعرض الى عبد الله باشا وبقى مقيما خمسة أيام خارج البلد فحضر له جواب من عبدالله باشا انه يتوجه إلى عكا . وفى ذلك النهار ذاته سار الأمير نواحى صيدا وبوصوله إلى نهر الدامور بلغه وصول البعض من عسكر درويش باشا إلى صيدا وتسلموها فنزل الأمير فى قرية المعلقة فى الدامور .

«وبذلك الغضون رجع رسول الأمير الذى كان ارسله إلى مصر جواب من محمد على باشا فى القبول فعند ذلك احضر المركب الفرنساوى الذى كان رابطاً تجاه بيروت . وفى ١٨ ذى القعدة الموافق الى ٢٣ تموز (٦ آب ١٨٢٢) نهار الثلاثاء نزل الأمير بشير فى ذلك المركب الفرنساوى من تجاه خلده وصحبته أولاده الأمير خليل والأمير أمين وميئة انسان من خدمه وباقى

اتباعه اصرفهم إلى محلاتهم .وفى ١٩ ذى القعدة الموافق إلى ٢٤ تموز حساب شرقى سافر فى الليل المركب الفرنساوى .. » (١٥) .

وكتب كذلك عبد الله باشا إلى محمد على وطلب منه حمايته والتدخل لمصلحته لدى الباب العالى (١٦) .

وليس لدينا من الأدلة ما يثبت أن محمد على وبشير قد اتصلا ببعضهما قبل عام ١٨٢٢ ، فلا توجد بين أوراقهما المختلفة أى أثر لاتصال مباشر أو غير مباشر قبل هذا التاريخ . كما لا يوجد فيما نشر من تقارير قناصل الدول ما يدل على ذلك . ولعل ميل نديم الأمير وشاعره المعلم نقولا الترك إلى محمد على هو الذى أوجد لدى الأمير بشير الثانى ميلا لباشا مصر واستعداداً للجوء إليه والتفاهم معه بعد ذلك (١٧) . وعندما وصل الأمير بشير الثانى وحاشيته إلى بولاق استقبله حنا بحرى ، أحد موظفى محمد على ، باسم كتخدا بك (١٨) ، وفى نفس اليوم اجتمع بكتخدا بك لمدة ثلاث ساعات وشرح له ما وقع فى بر الشام فطمأنه وطيب قلبه . وأقام بشير فى مدينة الفشن بمصر الوسطى لمدة سبعين يوماً حيث زاره هناك ابراهيم باشا ، ابن محمد على . ولما وصل محمد على من الاسكندرية ، كتب الكتخدا بك إلى الأمير بشير يخبره بذلك ويطلب منه الحضور لمقابلته . فحضر الأمير بشير والتقى بمحمد على فى قصره بشبرا واختلى به لمدة ساعتين حيث حدثه فى الأسباب التى دفعته إلى الالتجاء إليه . وقال بشير أنه كان، بامكانه مقاتلة عسكر الوزيرين مصطفى باشا ودرويش باشا معاً وأن ينتصر عليهما ، ولكنه أبى ذلك امتثالا لأوامر الدولة العثمانية . فسر محمد على به وقال له : «هكذا تكون أصحاب المروة أن يخدموا ولاة امورهم حتى الدم ، وطيب خاطره ونظر اليه بعين الرفعة وأحبه محبه عظيمه وقال له انى بكل زمانى ما طلبت من الحق سبحانه طلبة الا واستجاب دعوتى . وقد طلبت انى أراك فسبحانه تعالى ما احرمنى ذلك وقد رايتك يا امير بخير فأشكر افضال البارى على ذلك .. » (١٩) .

وتكررت اللقاءات بين محمد على والأمير بشير الثانى ، وفى إحدى المرات اجتمع الدايوان «وحضرت جميع علما مصر والقاضى والمفتى ونقيب الأشراف والبعض من رؤساء العساكر وأمر الوزير باحضار الأمير (بشير) الى الديوان. وفى دخوله التقاه بكل اكرام وآمر له فى الجلوس وشرب القهوة وبدأ يحادثه ويجابره فى الكلام فاستعجبوا أوليك الجلوس لانهم ما كانوا عرفوا الأمير بعد . فقال الوزير (محمد على) إلى القاضى هل عرفت هذا الرجل فطلب العفو وعمل تمنى . فقال الوزير هذا كبير عشاير جبل لبنان وفى هذه الأيام قدم الينا لانه كان خادماً عبد الله باشا والى صيدا وحين حدثت المضاغنة بين عبد الله باشا ودرويش باشا والى الشام وغضبت الدولة العثمانية على عبد الله باشا . فطلب درويش باشا هذا الأمير لخدمته فأبى ان يخدم غير ولى نعمته وذلك لكبر امانته وحين حاصرت الوزر عكا حضر إلى هذه الديار . وقد كان قادراً أن يحارب أوليك الوزر المحاصرين عكا لأنه يحكم على جبل لبنان وتحت يده عشاير تجمع مئة ألف مقاتل . ولكن ما اراد يخالف الدولة العلية . فحين سمعوا اوليك الجلوس ما تكلم به الوزير ونظروا الأمير بشير فى غاية العقل والرزانة فصار عظيما فى أعينهم ثم انصرف الجميع وأمر الوزير الأمير أن يبقى جالساً . واجتمع معه نحو ساعتين ..» (٢٠) . وظل الأمير بشير يتردد على محمد على طوال اقامته فى القاهرة كل يوم مرة . ومازال فى القاهرة حتى عفا الباب العالى عن عبد الله باشا وأبقاه فى منصبه كما كان . ولدى وصول العفو استدعى محمد على الأمير بشير وقال له : لقد صرت عندى بمعزة ابنى ابراهيم وأنى لم أقم بهذه المراجعات الا لأجلك أنت فقط . ثم أمره أن يكون على أهبة السفر وأن ينقل العفو إلى عكا بنفسه . وأن يتعاون وعبد الله باشا لإرضاء الباب العالى بدفع المال المتوجب على هذا الأخير (٢١) . وأمر محمد على سلحداره سليمان أغا بأن يواكب الأمير إلى عكا قائلا «اعلم كأنك سائر معى» . وأبحر الأمير بشير وحاشيته إلى عكا فى ثلاث مراكب مصرية ، ولدى وصول الأمير بشير الثانى وسلحدار محمد على استقبلهما عبد الله باشا بمزيد الاعزاز والتكريم وتليا على من فى عكا أوامر الدولة

العثمانية . وحض الأمير بشير عبد الله باشا على ارسال المبالغ المطلوبة للآستانة وأصلح ما بينه وبين أعيان جبل صفد وجبل عامل ، ثم وصل إلى بيت الدين فى ربيع عام ١٨٢٣ .

ويبدو أن الأمير بشير الثانى ومحمد على قد تفاهما تفاهماً سياسياً وعسكرياً منذ عام ١٨٢٣ . فقبل مغادرة بشير الثانى مصر وعودته إلى الشام ، كان محمد على قد وجه اليه سؤالا يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتمكن الأمير من جمعهم وارسالهم اليه إذا اقتضى الأمر . ولقد أجاب الأمير بشير الثانى بأنه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة آلاف رجل بقيادة ابنه الأكبر . وعندما اشترك محمد على فى حرب المورة كتب إلى عبد الله باشا يطلب منه الاتصال بالأمير بشير لتنفيذ وعده (٢٢) . فاستدعى عبد الله باشا بدوره الأمير بشير الثانى إلى عكا ليخبره بطلب محمد على . وأصدر عبد الله باشا مرسوماً إلى «امرا ومقدمين ووجوه ومشايخ جبل الشوف وجبل كسروان » لتجهيز هذه القوة من «الرجال المشهورين المجربين بالشجاعة والقوة» . وعلى الفور أمر الأمير بشير بتجنيد عشرة آلاف لبنانى لخدمة محمد على . وفى منتصف يونيو عام ١٨٢٤ ، وجه الأمير بشير الثانى ابنه الأمير أمين إلى مصر بأربعين جواداً نجدياً وبعدد ثمينة بلغ ثمن مجموعها مائة ألف قرش . ولما وصل مصر اسفبل استقبالا رسمياً فالتقته العساكر بالموسيقى ودخل القاهرة فى موكب فخم . ثم استقبله محمد على ورحب به وسأله عن تجهيز العشرة آلاف مقاتل فأجابه أنها معدة . فقال له اكتب إلى والدك أنه لا لزوم لها «لان الحمد لله عساكرنا المنصورة صارت فوق الكفاية » (٢٣) . وأضاف قائلا «أنا موكد ومحقق صدق ابيك بمحبتى وخدمتى من دون شبهة» . ويعتقد البعض أن محمد على قد تفاوض مع الأمير بشير بشأن الاستيلاء على سورية وضمها إلى ولايته ، وأن الأمير بشير ارتبط معه «بقسم انه يخدمه ويكون فى طاعته إلى آخر نسمة من حياته ، ومن بعده أولاده» (٢٤) . ويقول بولس قرألى أنه تحقق من تاريخ مخطوط للأمير عثر عليه فى عام ١٩٢٦ أن محالفة سرية قد أبرمت

بين الأمير بشير ومحمد على أثناء زيارة الأمير لمصر ، وأنه على أثرها صمم على تملك سورية ولم يكن ينتظر غير الفرصة السانحة (٢٥) .

وبعد عودة الأمير بشير الثانى إلى لبنان عمل على القضاء على من تبقى من خصومه ، وفى مقدمتهم حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط . إذ أن الشيخ بشير جنبلاط سعى أثناء غياب الأمير فى مصر لمنع عودته ، متآمراً فى ذلك مع عباس شهاب ، الأمير المؤقت . وكان بشير الثانى على علم تام بهذه الدسائس مما أقلق بال الشيخ بشير جنبلاط وسبب له خوفاً شديداً . وما أن وصل الأمير إلى قصره فى بيت الدين عائداً من مصر ، حتى هرع إليه الشيخ بشير معلناً استمرار صداقته وخضوعه ، ولكن الأمير بشير الثانى لم يستقبله بترحاب ، بل رد على تحياته ومجاملاته بالتوبيخ والمغالاة فى طلب المال . وأبى الشيخ بشير جنبلاط ذلك وفر إلى حوران ، وزحف الأمير بشير على المختارة ، معقل الأسرة الجنبلاطية ، وهدم قصر بشير جنبلاط هناك ، ثم صادر أملاكه فى الشوف . ولما علم بشير جنبلاط بذلك ثارت ثائرته وعاد إلى لبنان مصمما على الثورة . والتف حوله عدد من المشايخ والأمراء ، وأعلن العصيان على الأمير بشير فى ديسمبر عام ١٨٢٥ . ولكن ثورة بشير جنبلاط باءت بالفشل ، إذ عجز الثوار عن الصمود أمام رجال الأمير . وهرب بشير جنبلاط إلى دمشق مع من بقى معه من الأنصار . غير أنه بمجرد وصوله إلى عكا اعتقل واقتيد إلى السجن فى عكا ، حيث أمر عبد الله باشا باعدامه خنقاً ، نزولا على رغبة الأمير بشير الثانى . وبالقضاء على هذا المنافس القوى ، الواسع الثراء ، أصبح الأمير بشير وحده السيد المطاع فى لبنان . وهكذا سدد ضربة قوية إلى الزعامة الدرزية فى لبنان ، ولم يغفر له الدروز ذلك ، وأحجموا عن التعاون الفعلى فى شئون الامارة منتظرين فرصة سانحة للثأر . وأثناء الخلاف بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ، أبدى محمد على استعداده لارسال جيش لمساعدة الأمير بشير ضد أكبر قوة اقطاعية ، ولكن الأمير أمين بن بشير طلب منه التريث والانتظار (٢٦) . ويبدو أن محمد على كان يدرك ضرورة وجود حاكم

قوى فى لبنان يستطيع أن يوحد سياسة المنطقة فى اتجاه واحد حتى لا تجد القوى الخارجية موضع قدم لها فى البلاد الشامية التى هى بمثابة مفتاح مصر الشمالى .

وفى هذه الأثناء ، كانت حرب المورة تستر عى اهتمام العالم ، وكان السلطان العثمانى محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) قد استعان بتابعه محمد على لخوض غمارها . وفى عام ١٨٢٥ ، نزل ابراهيم باشا بقواته فى المورة ، وأحرز نجاحاً عسكرياً فائقاً فى الميدان الأوروبى فى الوقت الذى كانت قوات السلطان قد فشلت فى مهمتها فى تلك المناطق . ولم ينل محمد على من السلطان العثمانى ، نقاء خدماته تلك ، إلا جزيرة كريت ، لأن بلاد المورة التى وعد السلطان باسناد ولايتها إلى ابراهيم باشا قد استقلت ولم تبق فى يد السلطنة . وأبى محمود الثانى أن يعوض لمحمد على عنها ولاية عثمانية أخرى ، وألح محمد على على أن يوليه السلطان بلاد الشام عوضاً عن المورة . وحين رفض السلطان طلبه هذا ، قرر والى مصر اجتياح البلاد الشامية بالقوة لأنه أضاع أسطوله وعرض جيشه وابنه للخطر فى غير مقابل ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتطلع فيها محمد على إلى بلاد الشام . فلقد شجعه انتصاره المبكر على الوهابيين على مد دائرة نفوذه إلى سورية كضرورة استراتيجية . وفى ١٩ أغسطس عام ١٨١٣ كتب إلى السلطان يقول « ان هدفى هو أولا عرض الحالة الحقيقية . وثانياً لأقول بأننى بمطالبتى بسورية لا أريد أبداً أن استفيد من ذلك أو أن أوسع سلطتى . إنى لا أرمى الا إلى هدف واحد : أن أؤدى خدمة إلى سيدى» (٢٧) . وأثناء حرب المورة حاولت بعض الدول الأوروبية منعه من التدخل فى بلاد اليونان التى وعده السلطان بها ، وأغرته بمناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية « أكثر ربحاً» مثل سورية . وكانت الدبلوماسية البريطانية تريد له سورية ، وكتب ستراتفورد كاننج(Stratford Canning)
إلى سولت (Salt) ، قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، يقول «إذا استطعنا أن نحمل محمد على على فهم مصالحه الخاصة ، إلى حد دفعه إلى تبنى وجهات

نظرنا فلاشك فى أن مساهمته ستساعد على نجاح مفاوضاتنا . وسيكون من الأفضل له أن يتنازل عن جزء من الجزية التى سيدفعها اليونانيون ويحتفظ لابنه بولاية سورية من أن يستمر فى تبديد موارده على اخضاع شعب مقاوم لا يستطيع احتلال بلاده قبل أن يبيده عن بكرة أبيه .. » (٢٨) . والواقع أن محمد على نفسه كان يتطلع نحو سورية ، وقد أدركت الدبلوماسية الفرنسية ذلك عندما افترضت فى عام ١٨٣٠ أن باشا مصر قد يستخدم احتلال سورية كجسر للوصول يوماً ما ، هو أو ابنه ، إلى سدة الخلافة فى الآستانة (٢٩) .

وأيا كان الأمر ، فان محمد على تحدث سراً فى الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ مع الجنرال الفرنسى بيار (Beillard) عن أمانيه وقال : «أنا أعرف أن السلطنة تسير يوماً فيوماً إلى الردى ، وأنه ليصعب على أن أنشلها مما هى فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدى جل الوسائل التى تساعدنى على الفور . انى أستطيع أن أفتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى انشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز » (٣٠) . ويدل هذا على أن مصير سورية قد تحدد فى المجالس الخاصة . ولقد صمم محمد على على الاستيلاء على سورية بسبب الدوافع الاستراتيجية التى تتلخص فى ضرورة إقامته منطقة حاجزة بين ممتلكاته فى وادى النيل والمراكز القديمة للقوة العثمانية فى الأناضول . ففى نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر أصبح احتلال سورية من الأمور الضرورية . فلقد استغل السلطان محمود الثانى موقف الانكشارية فى حرب المورة وقضى عليهم فى عام ١٨٢٦ وبدأ ينظم جيشه على أسس أوروبية حديثة . وقد تلت كارثة اليونان حرب أخرى مع روسيا فى عام ١٨٢٨ ، ولكن بتوقيع معاهدة أدريانوبل (Adrianople) فى سبتمبر عام ١٨٢٩ استأنف السلطان مرة أخرى إصلاحاته العسكرية

والإدارية . وفى هذا الوقت أصبح تفوق محمد على العسكرى فى خطر ، وزادت سياسة السلطان محمود الثانى المركزية ، وعملت على الحد من استقلال محمد على الذاتى فى مصر .

ولما فشلت محاولات محمد على للاستيلاء على سورية بالوسائل السلمية ، حاول أن يجد مبرراً للتدخل ، ووجد ذلك فى سلوك عبد الله باشا ، والى صيدا ، الذى لم يعد يهمه استمرار الصداقة مع محمد على ، فآوى الفلاحين المصريين الذين فروا من مصر تخلصاً من الخدمة العسكرية وامتنع عن إرجاعهم . فتقرر محمد على توجيه قواته للانتقام من عبد الله باشا وقهره . وعندما علم عبد الله باشا بالأمر ، بادر إلى تحصين عكا ، وأرسل وفداً إلى الآستانة يعرض الشكوى ويطلب النجدة . ولكن الآستانة قابلت استغاثة عبد الله باللامبالاة وأبطأ الوفد هناك . وبينما كان مندوبو عبد الله باشا فى طريق العودة إلى عكا ، وصلت جيوش محمد على إلى المدينة بقيادة ابراهيم باشا ، ووقع خطاب الآستانة فى يد ابراهيم باشا ، الذى تبين منه عدم اهتمام الدولة العثمانية بعبد الله باشا ، فمضى فى تنفيذ خططه (٣١). ورغم خطورة الموقف ، لم تقم الدولة العثمانية بأكثر من لفت نظر عبد الله باشا باستعمال الكياسة وتجنب كل ما عساه أن يؤدى إلى الاشتباك فى الحرب . وعندما أحس عبد الله باشا بالخطر وإعراض الدولة العثمانية عنه أخذ يبالغ فى إظهار المودة للأمير بشير الثانى خلافاً لقلة الاكتراث التى أبداها من قبل . وأرسل إليه الهدايا الفاخرة والرسائل الرقيقة ، وجاء فى إحدى الرسائل المكتوبة بخط عبد الله باشا نفسه : «ان توجهى نحوكم هو الآن أكثر من الأول لأننا اختبرناكم مراراً فما وجدناكم الا كقول القايل : وأنت الخالص الذهبى المصفى ؛ وهذا تأكد عندى وتبرهن» (٣٢) .

ومما يلاحظ فى هذا المجال أن كثيراً من المؤرخين يدعون أن محمد على كان يخطط فعلا لانشاء امبراطورية عربية . والواقع أنه ليس فى كلمات محمد على أو فى سياسته ما يشير إلى أنه كان يسعى لاقامة هذه الامبراطورية. فمحمد على الذى تكلم عشرات المرات عن أهدافه من الحرب السورية ،

لم يذكر مسألة وحدة العرب وتحريرهم ، ونستدل على ذلك من مجموعة الرسائل التى تبادلها مع ابنه ابراهيم وقادة جيشه وأعيان البلاد ، وهى التى نشرها الدكتور أسد رستم فى عدة مجلدات بعنوان «المحفوظات الملكية المصرية» . ولقد أدت قلة الحجج لدى القائلين بعروبة محمد على إلى أن ينسبوا تلك العروبة إلى ابنه ابراهيم . ولكن القول بمقاصد ابراهيم جاء الينا عن طريق بعض الأجانب ، فلقد التقى به زائر فرنسى وهو البارون بوالكونت بالقرب من طرسوس بالأناضول عام ١٨٣٣ ، وذكر عنه «ان ابراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم» . وقال إن ابراهيم فاخر بأمجاد العرب فى منشوراته التى وزعها على جنوده فى الحملة السورية ، وكان يدعوهم إلى تحقيق الوحدة تحت لواء أبيه (٣٣) . ولكن يظهر أن عروبة ابراهيم هذه لم تكن أمراً جدياً ، فلو عدنا إلى رسائله التى بعث بها إلى أبيه وإلى مرءوسيه أثناء حربه فى سورية ، نجد أنه أغفل ذكر الوحدة العربية فى حديثه عن غايات حملته . وما نميل إلى تأكيده هنا أن محمد على كان يهدف إلى السيطرة على الخلافة الإسلامية والجلوس محل الخليفة العثمانى فى الآستانة . ومما يدعم هذا الرأى ما ذكره هنرى دودويل بأن «فكرة محمد على لم تكن متجهة إلى انشاء وحدة عربية داخل دائرة الاسلام ، بل أن يصبح زعيم الإسلام الأشهر المشار اليه بالبنان وأن ينادى به الناس كإمام لهم» (٣٤) .

والواقع أن محمد على كان مسلماً مخلصاً فى دينه يقوم بأداء الفرائض بكل اخلاص ، وأنه كان يعترف بتأخر «الملة المحمدية» بتعبير ذلك العصر ، وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة وبوجوب الصمود لطمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن «الملة» (٣٥) . ففى رسالة إلى ابنه ابراهيم عندما تأزمت العلاقات بينه وبين الباب العالى وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية ، كتب يقول «يجب أن نقبل الحرب متوكلين على الله تعالى كما تفرضه الشهامة والشرف الانسانى والحمية الاسلامية ونبذل ما يسعنا

من الجهود على الرغم من تفوق قوتهم معتصمين بقوله تعالى : وما النصر الا من عند الله وقوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ونحافظ على كرامتنا وشرفنا .. ان غرض الدول ليس اعانة الدولة العلية بل مجرد ترك الطرفين فى حالة ضعف وعجز حتى يتسنى لهم الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة فى الوقت الذى يوافق أهواءهم وسياستهم ، واذا كان غرضهم ما ذكر فقبول تكليفهم خيانة للملة وتمام استقلالها ، فبدلا من ان نقبل هذه الخيانة ونذكر باللعنة إلى يوم القيامة نموت فى سبيل الدين ونشيد بذلك دنيانا وآخرتنا ..» (٣٦) .

وفى اكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت القوات المصرية نحو عكا ، فاحتلت العريش ويافا وحيفا ، ثم وصلت براً وبحراً إلى عكا وبدأت حصارها . ولقد أدى زحف الجيش المصرى على عكا إلى حدوث رد فعل مباشر فى لبنان بسبب علاقات الود بين الأمير بشير الثانى ومحمد على . فما أن اقتربت جيوش ابراهيم باشا من عكا حتى وقع الخصام بين الموارنة والدروز فى لبنان ، ونشب القتال بين الفريقين فى دير القمر والمتن والبقاع . وحاول الدروز تنظيم ثورة ضد الأمير بشير الثانى لاحراج ابراهيم باشا فى زحفه ؛ ولم يكن للدروز أى عذر لمثل هذا الموقف إلا عداوتهم للأمير بشير . أما الموارنة ، فاعتبروا ابراهيم باشا صديقاً لهم ، كما اعتبره سائر نصارى بلاد الشام . وكان ابراهيم باشا كلما احتل بلداً ألغى القيود المفروضة على النصارى واليهود ووضعهم على قدم المساواة مع المسلمين . فعندما دخل القدس ، بادر إلى الغاء «الأغفار» (٣٧) التى لم تكن غايتها حفظ الأمن ولكن ابتزاز الأموال غير المشروعة من الأهالى والحجاج . وأبطل هذه «الأغفار» والضرائب غير المشروعة محرراً طرقات القدس ومنازلها منها ، وأصدر مرسوماً بذلك فى ديسمبر عام ١٨٣١ إلى ملا القدس وشيخ الحرم الشريف فيها ومفتى الاسلام ونقيب الأشراف وخدام المسجد الأقصى وكافة العلماء والخطباء والأعيان جاء فيه : « نحيطكم علماً انه ليس خافيكم ان القدس الشريف محتوى على معابد واديرة ترد لاجل

زيارتها جميع الملل العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الاقطار والديار . فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعة بالطرقات . ولاجل اجراء الوفق بين الناس صدرت اوامرنا الى جميع المتسلمين الذين فى ايالة الوية صيدا والوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الاغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم . ومن حيث ان الاديرة والكنائس الكائنة بمدينة القدس الشريف هى مقر الرهبان والقسس وبها يتلون الانجيل الشريف ويجرون طرائق اعتقادهم وطقوسهم فينبغى حمايتهم وصيانتهم من كل التكليفات التى ترتبت عليهم بواسطة طمع السالفين . فلذلك قد صدرت ارادتنا الآن برفع الترتيبات التى على جميع المعابد والاديرة وجميع طوائف النصارى الكاينة بالقدس الشريف افرنج وروم وأرمن وقبط . وكذلك العوايد المرتبة على الملة الموسوية قديماً وحديثاً بتلك المرتبات .. » (٣٨) . ومما لاشك فيه أن ابراهيم باشا قد هدف من ذلك استمالة وتأييد المسيحيين فى الدولة العثمانية وخاصة الأمير بشير الثانى ، وكذلك استمالة وتأييد الدول الأوروبية ، وخاصة فرنسا والرأى العام المسيحى واليهودى فى العالم للوقوف معه ضد الدولة العثمانية .

وفى يناير عام ١٨٣٢ بدأت الدولة العثمانية تتحرك ضد ابراهيم باشا ، فعينت والى حلب حاكماً عسكرياً على «عربستان» وسواحل بر الشام لمقاومة الحملة المصرية . وفى فبراير من نفس العام وجه والى حلب تحذيراً إلى أهالى جبل لبنان ينهاهم فيه عن الانقياد إلى الدسائس ضد الدولة العثمانية ويحضهم على دوام الطاعة لها . ووجه عثمان باشا ، والى طرابلس ، تحذيراً مماثلا للأمير بشير الثانى وأهالى الجبل يحذرهم فيه من الانضمام لمحمد على ويحثهم على التمسك بالولاء للسلطان العثمانى (٣٩) . ونتيجة لهذه الانذارات والتحذيرات ، تهيب الدروز الموقف «وصار اضطراب عظيم عند أكثر دروز الجبل وجعلوا يراسلوا بعضهم سراً ان لابد ان تقوى الدولة وتنتصر . وانقاد معظم الدروز إلى الأتراك واتخذوا موقفاً سرياً بهذا الشأن مخالفاً لميل الأمير بشير

الذى كان يود فى الباطن الغلبة لابراهيم باشا ويستعد خفية لتأييده وإن كان لم يجاهر بعد علناً بموقفه ملازماً خطة التروى والتأنى ريثما تنجلى الأمور بعض الشيء ويتشاور مع اهالى البلاد » (٤٠) . ومن ناحية أخرى ، وجه محمد على رسالة إلى الأمير بشير يحثه فيها على نصرة ابراهيم باشا ، وتوعده بأنه إذا أحجم عن الانضمام إلى ابراهيم باشا فانه سيجرد عليه خمس آلايات أوست لدك دياره وقطع دابر الدروز (٤١) . وكان بشير آنذاك فى عكا إلى جانب ابراهيم باشا ولكن بدون عسكر ، إذ لم يكن قد حدد موقفه بعد انتظاراً لانجلاء الموقف ، كما أشرنا ، ولمزيد من التشاور مع الأهالى. وكان وقوف ابراهيم باشا بجيشه مدة ليست بالقصيرة أمام عكا هى أحد الأسباب الجوهرية التى أدت إلى انقسام شيوخ وأمراء الجبل على أنفسهم: فقسم أعلن ولاءه للعثمانيين ، وقسم آخر من الأسرة الشهابية وجد أن الفرصة مواتية لاغتصاب الحكم من بشير الثانى ، فانضم إلى العثمانيين وجهز قوات للعمل بها فى لبنان (٤٢) .

وأمام الخاح محمد على ، اتخذ بشير الثانى فى أوائل عام ١٨٣٢ موقفاً مناصراً لابراهيم باشا على الصعيد العسكرى . فأوعز إلى ابنه الأمير أمين ، نائبه فى بيت الدين ، بجمع مناصب البلاد واستشارتهم والاطلاع على همتهم وعزمهم . فاستدعى الأمير أمين المناصب واستحث هممهم ، فاجتمعوا ووحدوا الكلمة وكتبوا إلى الأمير بشير أنهم جميعاً مقيمون على طاعته (٤٣) . وعندئذ ، أصدر الأمير بشير الثانى مرسوماً دعا فيه الأهالى إلى توجيه ألف مقاتل إلى الشويفات بقيادة ولده خليل . وساعد الأمير خليل ابراهيم باشا فى حربه ضد العثمانيين بالقرب من طرابلس . والواقع أن بشير الثانى كان حليفاً أميناً طائعاً لمحمد على وابنه ابراهيم باشا (٤٤) . أما الموارنة ، فقد اندفعوا فى هذه المرحلة إلى جانب ابراهيم باشا . وكان البطريرك المارونى يوسف حبيش على اتفاق تام مع الأمير بشير الثانى ومناصراً له وللجيش المصرى . وفى أول يونيو عام ١٨٣٢ ، كتب البطريرك حبيش إلى حنا بحرى ، من كبار رجال الإدارة المصرية فى بلاد الشام ، يقول : « وفد الينا

تحرير جنابكم المرقوم فى ٢٣ ايار (مايو) المفسح عن هذا الانتصار (فتح عكا) الفريد فحمدناه تعالى .. ثم وكامل مانوهتموه لجهة صدور الاوامر الشريفة بطلب رجال ليتوجهوا بخدامة سعادته الشريفة (الأمير بشير) للشام واننا ننبه على جميع أولادنا ابناء رعيتنا بانهم حالا يسارعوا باجمعهم من كل من فيه الكفاية لهذه الخدمة الشريفة من دون تأخير ولا توقيف فجميع ذلك بقى معلوماً لدينا . وحالا بادرنا من دون تأخير برقم كتابات عمومية للجميع حسب المطلوب . والذى نعلمه بان الجميع مستعدون لهذه الخدمة الشريفة ..» (٤٥) . ولم تقتصر مساعدة الأمير بشير والموارنة للحملة المصرية على مدها بالجنود فى المعارك ، ولكن الموارنة كانوا أيضاً خير عون للمصريين فى الإشراف على الإدارة فى البلاد ، وتنظيم التموين ، وحفظ الأمن . وعندما قرر ابراهيم باشا الزحف على الشام ، اتفق على ذلك مع الأمير بشير الثانى وأصدرا أمراً باستنفار «جميع رجال الجبل قاطبة من كل من يحمل سلاحاً » وبتسييرهم بقيادة الأمير خليل إلى قطنا . ووجه ابراهيم باشا إلى أمراء ومقدمى ومشايخ ورعايا الجبل كتاباً يحثهم فيه على جمع كل الرجال حاملى السلاح للسير صحبة الأمير خليل . وأمر ابراهيم باشا والأمير بشير الثانى أيضاً بجمع جميع البغال والجمال والدواب من بلاد جبيل إلى بلاد صفد وجميع ما بينها من البلدان لنقل الذخيرة من صيدا إلى زحلة. كما أرسل الأمير بشير كتابات من عكا إلى جميع أكابر البلاد ليجمعوا الرجال المسلمين من الشوف والمتن وكسروان وبلاد جبيل .

وأثناء حصار عكا ، زود ابراهيم باشا الأمير بشير الثانى وأولاده بجنود مصريين لاحتلال المدن الأخرى على الساحل الشامى . فاحتل الأمير بشير ، بسهولة ، صور وصيدا وبيروت . وكانت القوات المصرية قد احتلت بيت الدين ودير القمر ، لحفظ الأمن فى بلاد الشوف . وعندما سقطت عكا فى ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ واستسلم عبد الله باشا ، زحف ابراهيم باشا ، يرافقه الأمير بشير الثانى ، على دمشق لاحتلال بقية البلاد الشامية . وهرب الوالى العثمانى من دمشق ، إلا أن القوات المصرية واللبنانية لحقت

به إلى حمص ، حيث هزمته فى يوليو عام ١٨٣٢ . وقبل أن يتحرك ابراهيم باشا نحو الشمال ترك فى حمص الأمير بشير الثانى ليتولى ضبط الغنائم من مدافع وذخيرة . وبعد استيلائه على حلب ، قرر ابراهيم باشا استغلال الفوضى الشاملة لتعزيز انتصاراته ، فاجتاز جبال طوروس وهزم من جديد القوات العثمانية فى موقعه بيلان فى ٢٩ يوليو من نفس العام . وهكذا فتح أمامه طريق الأناضول والآستانة (٤٦) . وفى مايو عام ١٨٣٣ وقع صلح كوتاهية (٤٧) الذى توج انتصارات الجيش المصرى ، وبذلك انتقل حكم بلاد الشام من يد الدولة العثمانية إلى يد محمد على وابنه ابراهيم باشا . وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام ، وصار ابراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية .

أخذ ابراهيم باشا فى تنظيم سورية وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية، فعنى بإقرار الأمن والنظام فى ربوعها ، وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالى وأملاكهم وأرواحهم . ومن الناحية العسكرية ، عنى ابراهيم بتوطيد مركز مصر فى سورية ، فأمن حدودها الشمالية وحصن مضايق جبال طوروس لصد هجوم العثمانيين إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية فى أهم المدن السورية. وبلغ عدد الجيش المرابط فى سورية نحو سبعين ألف مقاتل ، رابط معظمه فى الجهات الشمالية القريبة من الحدود العثمانية (٤٨) . وقد ألغى ابراهيم باشا التقسيمات الإدارية التى سادت بلاد الشام فى العصر العثمانى الأول ، فعين فى ديسمبر عام ١٨٣١ متسلمين على المدن الساحلية مثل صور وصيدا وبيروت وطرابلس وربطهم به مباشرة ، ثم عدل عن ذلك بعد سنة واحدة وفوض الأمير بشير الثانى فى اكتوبر عام ١٨٣٢ فى إدارة شئون هذه المدن، فولى الأخير متسلمين عليها من أقاربه . وفى خريف عام ١٨٣٢ عين محمد على شريف باشا حاكماً عاماً (٤٩) على جميع إيالات بر الشام، باستثناء جبل لبنان حيث بقيت ادارته تحت اشراف الأمير بشير الثانى . وإذا كان الحكم

المصرى قد استطاع – فى بادىء الأمر – القضاء على التقسيمات الإدارية التقليدية فى بلاد الشام وإقامة وحدة إدارية فيها ، إلا أن هذه الوحدة لم تدم طويلا ، واضطر الحكم المصرى تحت تأثير الثورات المستمرة أن يعيد التشكيلات الإدارية السابقة ، فأعيد تشكيل إيالة صيدا من جديد بعد أن سلخت عنها عكا وعين سليمان باشا الفرنساوى واليا عليها فاتخذ مدينة صيدا مقراً له . كما فصلت حلب عن إيالة الشام وعين اسماعيل بك والياً عليها فى عام ١٨٣٤ (٥٠) .

وعلى أية حال ، فقد أصبحت بلاد الشام فى أواخر الحكم المصرى (١٨٣٩) مقسمة إلى عدد من الوحدات الإدارية (مديريات) وهى الشام وحلب وصيدا وطرابلس ويافا وأدنة . وقد تولى إدارة كل منها مدير كان يساعده متسلم (فى كل مدينة) هو عون له فى تدبير الأمور . وهذا بدوره كان عنده مباشر يعمل بمثابة مديراً للمال . وكان المباشرون عادة من المسيحيين لأنهم كانوا أكثر من سواهم خبرة بالأعمال الحسابية (٥١) . وألف ابراهيم باشا فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلساً يسمى «ديوان المشورة» يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضواً ينتخبون من بين أعيان البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس فى مصالح كل بلدة ومطلوبات المرى وإليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها . وتكون ديوان بيروت من اثنى عشر عضواً منهم ستة من المسلمين وستة من المسيحيين . وجاء فى وصف هذا الديوان أنه :

«فى ١٤ رمضان (١٢٤٩ هـ) أمر ابراهيم باشا بصير ديوان مشورة فى بيروت وجعل اثنى عشر رجل من أكابر بيروت أصحاب فطنة والمتسلم لا يبدى بشىء الا بما يبرز به الحكم من ديوان المشورة بموجب كتاب منه الى ارباب الديوان المذكور وهم ستة اسلام : عبد الفتاح حماده ناظر المجلس وعمر بيه (بيهم) أحمد العريسى حسن البربير امين رمضان احمد جلول وستة نصارى وهم جبرايل حمصى بشارة نصر الله الياس منسا ناصيف مطر

يوسف عبروت موسى بسطرس وترتيب المذكور (١) تعيين وقت معلوم كل يوم إلى حضور ارباب المجلس وعند حضورهم يحرر الكاتب اسماءهم بقائمة برتبة حضورهم لا برتبة مقامهم (٢) الكاتب يحرر كل يوم الأشغال الموجودة عنده . وحين يحضروا أرباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم إلى يوم (٣) إذا كانت هذه الأشغال لا تنتهى فى ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثانى يوم قبل الوقت المعين بزمان كاف لنهيها (٤) الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تنقيد فى أعماله بل فى اليوم الذى تنتهى فيه (٥) حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خبير بها من أرباب الديوان قبل الجميع وبعده يأخذ رأى الباقى بحيث لا يبقى احد بدون تكلم واذا وجد واحد من ارباب المجلس تكلم مع آخر فى حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب أولا وثانياً فان ما افاد فيحرر فى مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل أحاديث خارجة عن المصلحة والكاتب لازم يحرر كلما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شيء وكلما يتقرر يكون مكتوبا ولا يتحرر الا الذى موافق الحق (٦) بعد نهاية المجلس وتمام (رؤية) المصالح التى نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحررها الكاتب بمسودة وثانى يوم يبيضها ويوجهها لمحلاتها وبعد ذلك تنقيد فى سجل المجلس وهذه الخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم للمجلس لكى بعد نهايته يقرأها بأعلا (صوته) بحضور الجميع فان استحسنوا رأياً اوفق من الذى تقدم فيغيروا الخلاصة وتتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة وبعد القيد تصل الى صاحب الأمر لكى يشرح عليها الى اصحابها آمراً باجراء ما يتضمن من الحكم واذا (ما) كان سعادة الحاكم دار موجوداً فيشرح من طرف متسلم آغا (٧) الكاتب يمسك دفترين الواحد الى صورة المجلس المتضمنة التقرير والآخر الى الخلاصات من بعد ختمهم ويلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس أيضاً» (٥٢) .

ومنذ أن دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، استدعى الأمير بشير الثانى للتداول فى تدبير الأمور ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى ابراهيم عدداً

لا يستهان به من ولاة الأمور فى البلاد ، وأحل محلهم من وجد فيه الكفاءة ، وأوصى «بوجوب المحافظة على راحة الأهالى ، وتأمين العباد ، وزجر المعتدين ، وتحاشى أسباب الجور والاعتساف » (٥٣) . ويمكن أن نوجز الاصلاحات التى قام بها الحكم المصرى فى لبنان على النحو التالى :

(أولا) ألغى الحكم المصرى جباية «الخوة» التى فرضتها زعامات عشائرية معينة عند معابر البلاد ومسالكها ، وكانت السلطات العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها أجيالا طويلة ، فزالت هيبتها وقل نفوذها . وأصبح جباة هذه «الخوة» أسياداً فى مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . ومن هؤلاء آل أبى غوش فى الطريق المؤدى من يافا إلى القدس ، وآل رستم فى جسر شغور عبر العاصى بين اللاذقية وحلب ، وعشيرة الدنادشة فى تل كلخ بين طرابلس وحمص (٥٤) . وقد نهى ابراهيم باشا عن «الخوة» وهدد بالعقاب الصارم فامتنع جباتها عنها وامتثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد ومسالكها آمنة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين .

(ثانياً) فرق الحكم المصرى فى سياسته الداخلية بين وطنى آمن وبين أجنبى طامع ، فشمل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر . فوافقت الإدارة المصرية مثلا على السماح لتابع قنصل انجلترا فى رودس باستخراج الاسفنج من مياه الشام ، ولكنها رأت أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى (٥٥) . وهكذا ألغى الحكم المصرى الأوضاع التى كانت تعطى للتاجر الأجنبى بمقتضى معاهدات الامتيازات (Capitulations) تفوقاً على المواطن، وامكانيات على تصدير واستيراد وبيع البضائع بقيمة أقل من تلك التى يبيع بها المواطن . ولقد كانت الإدارة والأمراء يفرضون الضرائب العديدة على المواطن ، وبلغت أكثر من ١١٪ بينما بلغت على الأجنبى ٣٪ فقط . وبذلك ساوى الحكم المصرى بين الوطنيين وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافىء بر الشام (٥٦) .

(ثالثاً) عمل الحكم المصرى على توطيد دعائم المساواة السياسية بين

النصارى والمسلمين . وفى أوائل عهد الحكم المصرى فى بر الشام ، كتب ابراهيم باشا إلى متسلم اللاذقية يقول : «والتعرض الى الرعايا وعدم مؤاساتهم هذا مخالف لرضانا لان الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ما له مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجرى اسلامه والعيسوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد» (٥٧) . واحترم الحكم المصرى زعامة الدروز والنصارى فى لبنان احترامه عامة اخوانهم المسلمين ، ولم يتأخر عن ترقية الدروز والنصارى عند ثبوت الاستحقاق . فرقى إلى رتبة البكوية حنا بحرى وهو نصرانى ونعمان جنبلاط وخطار العماد وعبد السلام العماد ونصيف أبو نكد وهم دروز (٥٨) . كما أباح الحكم المصرى للمسيحيين ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية . وعاقب محمود نامى بك ، محافظ بيروت ، بعض مسلمى بيروت لأنهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى (٥٩) . كما رأى محمد على أن يجند النصارى ليبعد الدول الأوروبية عنهم وعن إثارة الفتن بواسطتهم وليزيل عداوة المسلمين ويوطد صداقتهم .

على أن المحاسن التى جاء بها الحكم المصرى لم تلبث أن اختلطت بمساوىء جعلت الحكم المصرى حكماً ممقوتاً . لقد وعد ابراهيم باشا أهل الشام بأن يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الأموال الأميرية . وقد بر بوعده فى السنوات الأولى من حكمه ، فخفف عنهم بعض الأعباء المالية ، وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة (٦٠) . فشعروا بالاطمئنان إلى الحكم المصرى وركنوا إليه . ولكن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت لما أصدره محمد على إلى ابنه ابراهيم باشا فى أواخر عام ١٨٣٣ وأوائل عام ١٨٣٤ من الأوامر التى أثقلت كاهل الأهلين بأعباء فادحة وهى :

١ — احتكار الحرير فى البلاد السورية ، واجبار الأهالى على بيع محصول أرضهم إلى الحكومة بالثمن الذى يقدره عمال الحكومة نفسها (٦١) .

٢ — أخذ ضريبة الرءوس (الفردة) (٦٢) من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم .

٣ — التجنيد الاجبارى لتكوين جيش ضخم لمجابهة المقاومة المحتملة من قبل الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

٤ — نزع السلاح من أيدى أهالى البلاد . وقد تحقق هذا بسهولة فى سورية والسهول والسواحل عامة . أما فى جبل لبنان ، فقد اصطدمت هذه السياسة بصعوبات هائلة نفسية وعملية . وكتب أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا فى عكا ، يقول : «أنا لا أعتقد أن ابراهيم باشا ناجح فى تجريد كل الأمة من السلاح وخاصة سكان جبل لبنان وتابلس والقدس . وليس من يجهل أنه لأهون على هؤلاء تسليم نسائهم من تسليم سلاحهم » (٦٣) .

٥ — ادخاله السخرة فى البلاد ، وكانت تشمل الناس وحيوانات النقل لأشغال الحكومة . ويقول أحد المعاصرين أنه لم يقدر « احدمن اية رتبة كانت من الأهالى فى المدن فضلا عن القرى ان يحمى دابته ويحافظ عليها ولو جعل معلفها داخل داره فان الضابط المسمى بالتفكجى له سلطان ان يخلع الأبواب ويكسر الاقفال ويفوت هاجما إلى الدار ويجرها قهراً جبراً ويركبها لاى عسكرى او ضابط اراده ويكون صاحبها مجبوراً بان يستأجر لها رجلا يرسله معها لاجل عليقها وليحضرها له عند انتهاء عملها والا لادعوى له اذا ضاعت عليه . وفى أكثر أيام السنة كانت تمتنع الفلاحون عن النزول الى المدينة لانه لا يمكن أن ينزل اليها فلاح الا ويتسخر هو ودابته او هو وحده ودابته وحدها فيجره الضابطى الى حيث أراد وإذا تعند معه أصابه من الضرب الأليم والعذاب المفرط ما يجعله أن يخضع لارادته رغماً عن انفه» (٦٤).

وقد تبرم الأهالى من هذه المحدثات وتذمروا منها ، لأن احتكار الحكومة ، مثلا ، للحرير كان من شأنه الحاق الضرر بمنتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين من مكاسبهم منه . وقد نفروا كذلك من ضريبة الرءوس وخاصة المسلمين لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل ، وزاد من تذمرهم تسخير الحكومة للأهالى فى الأعمال العامة . وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التى أفضت إلى الثورة ، فقد نفذ

التجنيد بطريقة قاسية تثير حفيظة الناس . وقد كره اللبنانيون التجنيد الإجبارى كرهاً شديداً ، فقد كان الدروز والموارنة جنوداً أشداء ، يهبون للقتال فى سبيل أمرائهم إذا أهيب بهم إلا أنهم كرهوا الخدمة العسكرية النظامية ، خصوصاً فى جيش من غير بلادهم . وكان الموارنة كنصارى يعتبرون أنفسهم معفيين من الخدمة فى جيوش دولة إسلامية ، سواء كانت هذه الدولة عثمانية أو مصرية . أما عقال الدروز ، فأبوا أن يخدم فتيانهم جنباً إلى جنب مع جنود مسلمين فى جيش واحد ، خوفاً على درزيتهم من الإفساد . أضف إلى ذلك أن الخدمة العسكرية هددت بالقضاء على طبقة الفلاحين اللبنانيين ، إذ كان من شأنها إبعاد أفضل عناصرها من المزارع والحقول ، للقتال فى حروب لا مصلحة لهم فيها .

وفى عام ١٨٣٤ ، قامت أولى حركات التمرد ضد الحكم المصرى فى بلاد الشام . فابتدأت الثورة على شواطىء نهر الأردن بالقرب من بيت المقدس ، وسار ابراهيم بجيشه من يافا إلى بيت المقدس . وهناك جمع أكابر القوم واستوضحهم مقصدهم ، فأجابوه بأنهم لا يعارضون فى احتكار الحكومة للحرير ، لكنهم يعارضون أشد المعارضة فى نزع السلاح وفى تجنيد الشبان فى الجيش ، وتعهدوا لقاء اعفائهم من هذا دفع ضعفى الضريبة وتقديم بعض أولاد المشايخ رهينة لضمان طاعتهم واخلاصهم . غير أن ابراهيم باشا أبى أن يتهاون فى تنفيذ أوامر أبيه . وأخذت الثورة تستفحل ، وخاصة عندما ذاع بين الأهالى أن الدولة العثمانية تتأهب بجيش جديد لاسترجاع بلاد الشام من محمد على ، وامتدت الثورة إلى نابلس . فجمع ابراهيم باشا جيشاً من ستة آلاف جندى وزحف على معقل العصاة فى قرية العنب ، وحاصرها لمدة ثلاثة أيام ، وكان سقوطها سبباً فى تشتت العصاة . وحضر محمد على إلى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على القتال . وكان ابراهيم باشا وقتئذ فى القدس ، فذهب لاستقباله فى يافا . وكان العصيان قد امتد إلى صفد ، فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فعهد محمد على إلى الأمير بشير الثانى أن يخمد هذا العصيان «واعداً اياه أن يعفى

بصورة دائمة سكان لبنان من دروز ومسيحيين من الفردة والتجنيد» (٦٥).
وهنا برز دور الأمير بشير الثانى واللبنانيين فى التغلب على الثورة الفلسطينية واخمادها ، إذ كتب قنصل النمسا يقول :

«مر المير بشير ازاء صيدا ومعه سبعة آلاف رجل من الجبل . وقد قابلته .. وعرضت عليه ان ارافقه إلى صفد فتعلل بمشقة السفر واشار على أن أنتظر علماً منه بعد وصوله الى هناك . وفى الواقع لما علمت بخضوع سكان هذه المدينة أسرعت فى ارسال ابنى اسكندر إلى هناك. وقد كتب لى لدى وصوله بما ينعش الآمال بتحسن الحال . . فقد آل حضور الأمير بشير إلى خضوع العصاة فى صفد وضواحيها .. » (٦٦) .
وأظهر ابراهيم باشا امتنانه من الأمير بشير الثانى واللبنانيين على أثر هذه المعارك التى انتصروا فيها ، فأباح لهم أن يحتفظوا بأسلحتهم . ومثلما تمكن ابراهيم باشا بمساعدة الأمير بشير الثانى واللبنانيين من إخماد الثورة الفلسطينية ، فإنه تمكن ، كذلك ، بمساعدة الأمير خليل ، ابن الأمير بشير ، من قمع ثورة طرابلس واللاذقية وفرض الهيبة فى سورية .

وما أن استتب الأمر لابراهيم باشا بعد اخماد الثورات ، حتى شرع فى اتخاذ التدابير لتجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم . وكان لسياسته هذه أسوأ النتائج وأوخم العواقب على حكمه فى هذه البلاد ، لأن اللبنانيين لم يحاربوا عساكر الدولة العثمانية إلا سعياً وراء الحرية المطلقة . وقد بدأ ابراهيم باشا فى تفريق كلمة اللبنانيين قبل أن يباشر مهمة نزع سلاحهم وتجنيدهم ، فأوهم المسيحيين أنهم سيعفون من تسليم السلاح . وفى أوائل عام ١٨٣٥ ، اتصل ابراهيم باشا بالأمير بشير الثانى ومشايخ الدروز طالباً منهم مجندين ، فأجابه بأنهم لا يستطيعون إكراه أحد على التجنيد . عندئذ عمد ابراهيم باشا إلى استعمال الشدة ، فأرسل مرسوماً فى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٣٥ إلى الأمير بشير يخبره فيه أنه حضر إلى زحله ومنها سيحضر إلى بيت الدين ، ويأمره بأن يعلن ضرورة جمع السلاح من الدروز وأن يحذرهم من عواقب مخالفة هذا الأمر ..

واضطر الأمير بشير الثانى ، أمام هذا الضغط ، أن يفرق أولاده وحفدته فى المقاطعات لجمع السلاح . وفى نفس اليوم احتل ابراهيم باشا دير القمر وبيت الدين وبدأ فى نزع السلاح من الدروز تمهيداً لتجنيدهم . ويصف كتافاكو ، قنصل النمسا ، هذا الهجوم فيقول : «وقد استولوا (الجنود المصريون) من ليلة ٢٧ إلى ٢٨ أيلول على دير القمر وبيت الدين دون أن يلاقوا مقاومة أو يطلقوا طلقاً واحداً . وهذا يحمل على الاعتقاد ان الأمير بشير على اتفاق تام مع ابراهيم فى هذا الصدد . وهم ينزعون الآن سلاح الدروز وبعض المسلمين الموجودين فى دير القمر وجوارها . بقى علينا أن نعرف هل يعفى مسيحيو الجبل من هذا التدبير وهل يتم نزع السلاح فى كل مكان بهذه السهولة» (٦٧) .

وقد تم ما تساءل عنه القنصل كتافاكو ، وجمع السلاح من المسيحيين . فلقد كتب فى ١٢ اكتوبر عام ١٨٣٥ يقول : «اتشرف بأن افيدكم أن جبل لبنان قد وقع تحت سلطة الحكومة المصرية وقد احتله الجنود المصريون فى ٢٨ أيلول الماضى من غير أن يلقوا أدنى مقاومة . وهذا يدل على أن هذا الأمر تم برضى الأمير بشير واتفاقه مع ابراهيم باشا . وهذا موجود الآن فى دير القمر حيث يراقب نزع السلاح من كل اللبنانيين من دروز ومسلمين ومسيحيين حتى اذا انتهى من هذه المهمة اهتم بالتجنيد الذى لابد ان يتم بدون صعوبة » (٦٨) . وبعد نزع السلاح فعلا بدأ التجنيد فى عام ١٨٣٧ . ويلاحظ أن ابراهيم باشا اتبع خطة تكتيكية تدريجية فى جمع السلاح ، إذ بدأ جمعه من المسلمين والدروز فى سورية ولبنان أولا مستعيناً بالأمير بشير الثانى والموارنة فى ذلك . وعندما انتهى من جمعه من المسلمين والدروز جمعه من الموارنة . واتبع الخطة نفسها فى التجنيد فإنه ابتدأ باجراء التجنيد فى سورية وحوران مستعيناً بالموارنة . وبعد أن أنجز المهمة هناك ارتد إلى لبنان . وقد رافق تنفيذ سياسة التجنيد الاجبارى قيام الثورة من قبل الدروز فى حوران فى عام ١٨٣٧ ، وشاركهم فيها دروز فلسطين ووادى التيم وجبل لبنان . وكان ابراهيم باشا قد أعفى دروز حوران من التجنيد ثم تراءى له أن يطبق

عليهم نظام التجنيد ، و كانت حجته أنه فى حاجة إلى زيادة عدد الجيش استعداداً لصد هجوم العثمانيين الذى جاءت الأخبار بقرب وقوعه .

أنفذ ابراهيم باشا ثلاث حملات لإخماد ثورة دروز حوران ، ولكن الثوار استدرجوا الحملة الأولى إلى الجهات الجبلية الوعرة فى بلاد اللجاه ، وانقض عليها الدروز ، ودارت بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية ، فقتل قائدها وأبيدت الحملة قتلا وأسراً وتشريداً . وأرسل ابراهيم باشا إلى أبيه يطلب منه ارسال وزير الحربية المصرى لقيادة الحملة الثانية ، ولكن الثوار استدرجوها كما استدرجوا الحملة الأولى ، وتم هزيمتها . وتصدعت هيبة الجيش المصرى بانتصارات الدروز ، واستشرت الثورة من حوران إلى وادى التيم فثار الدروز فيها بقيادة شبلى العريان وقطعوا مواصلات الجيش . وجهز ابراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل أطبق بها على ثوار حوران ووداى التيم . ونشبت الحرب وكانت سجالا ، إلى أن انتهت بتسليم دروز وادى التيم ، ثم تسليم شبلى العريان ، وانحصار الثورة فى اللجاه التى تم اخمادها فى أغسطس عام ١٨٣٨ (٦٩) . وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر وامتصت طاقات مصر العسكرية وسببت خسائر فادحة فى الرجال والعتاد . وتدهورت هيبة السلطة المصرية فى صفوف الأهالى المقهورين والمستائين من نظام التجنيد . وقد كافأ محمد على الأمير بشير الثانى والموارنة على دورهم فى قمع ثورة حوران بأن أرسل اليهم أربعة وعشرين ألف بارودة « للموارنة واولادهم واولاد اولادهم » ، وجدد لهم وعود ابنه ابراهيم باشا بتخفيف الضرائب عنهم وبإعفائهم من السخرة (٧٠) .

ولا يغيب عن الذهن ما كان للدسائس العثمانية والإنجليزية من أثر كبير فى تحريك تلك الثورات ، لاسيما وأن الاحتلال المصرى لبلاد الشام قد أحدث تغيراً خطيراً فى الوضع الدولى . ولذلك قررت انجلترا العمل على الحد من مطامع محمد على ، وبدأت تمارس نشاطاً سياسياً فى بلاد الشام منذ

أوائل عام ١٨٣٥ حينما وصل ريتشارد وود (Richard Wood) إلى بيروت ، وكان يعمل فى السفارة البريطانية فى الآستانة . وفى هذا الصدد كتب أحد المعاصرين لتلك الأحداث يقول :

«دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور فى سورية على ماروبناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييراً فى البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الانجليزية) ونزل فى كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذى شميناه جاسوساً ، واسمه الحقيقى وود وكان ترجماناً لقنصل دولته بالآستانة ، وأظهر فى بادىء الأمر ميلا غريباً إلى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على امياله لدرس أحوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحاً أعماها عن معرفة غرضه الرئيسى ، ولا مشاحة ان دولة الانجليز أكثر الدول استعماراً ، وكأنها أوجست خيفة من الدولة المصرية التى مع حداثة نشأتها أصبحت فى مصاف الدول المرتقبة ، وكأنها لحظت ان محمد على باشا يطمع بعد ضم البلاد فى احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها فى تنظيم أحوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتمدنة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا — نابوليون مصر — بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار ، فرامت مقاومتها ولذلك ارسلت رجلها الذى ذكرناه فأخذ يلقى بذور الشقاق فى قلوب الأهالى ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه كسروان» (٧١) .

وكان هدف وود الأساسى أن يبعد الأمير بشير الثانى عن محمد على ، لاسيما أن وقوف بشير إلى جانب محمد على فى عام ١٨٣١ ، هو الذى سهل اخضاع بلاد الشام للسيطرة المصرية . ولهذا عمل وود على الوقيعة بين الحليفين وأخذ يحث الأمير بشير الثانى على الثورة . وتلقى الأمير بشير مقترحات وود بتردد ، وأجاب بلباقة : لا يسع اللبنانيون النهوض بثورة ما لم تصبح السهول الساحلية والداخلية بيد العثمانيين أو حلفائهم إذ لا ينتج الجبل من

الحنطة ما يكفى أبناءه إلا ثلاثة أشهر . فإذا قاموا بثورة وظل المصريون أسياد الساحل والسهل يتمكن هؤلاء من القضاء على اللبنانيين جوعاً بإقامة حصار حولهم ، ويجب على الأقل أخذ بيروت وطرابلس من القوات المصرية (٧٢) . وقد قضى وود فترة فى لبنان لتحريض الدروز ضد الأمير بشير الثانى وحليفه ابراهيم باشا ، كما بذل محاولات عسيرة لابعاد الموارنة عن فرنسا . ومما لاجدال فيه أن سياسة وود كان لها تأثير كبير فى تشجيع الدروز على مقاومة الحكم المصرى وإثارة القلاقل فى وجهه .

ومن ناحية أخرى ، شجعت حركة التمرد الدرزية ضد الحكم المصرى السلطان محمود الثانى على الإسراع بوضع خطة للثأر من محمد على واسترجاع سورية . ففى ابريل عام ١٨٣٩ عبرت القوات العثمانية الفرات وزحفت على سورية ، ولكن ابراهيم باشا انتصر انتصاراً ساحقاً على قوات السلطان فى موقعة نزيب شمال شرقى حلب فى ٢٤ يونيو من نفس العام . وبوقوع هذه الهزيمة العسكرية ، اضمحلت جميع آمال العثمانيين فى استرجاع سورية واخضاع الوالى للسلطان . وبعد خمسة أيام فقط من الكارثة قضى السلطان محمود الثانى نحبه ، وحمل معه إلى مثواه الأخير أشلاء كل أحلامه المتعلقة بتجديد الامبراطورية العثمانية وبعثها . واحتلت المسألة السورية مركز الصدارة فى قضايا الساعة . فقد أكد انتصار نزيب احتلال هذا الاقليم الذى استولى عليه محمد على فى عام ١٨٣٣ ، بينما كان هدف الهجوم العثمانى تقويض الوضع القائم المفروض فى تلك الأثناء ، ورد الجيش المصرى إلى ما وراء حدود ولاية عكا الطبيعية . ولما أصبحت الآستانة والسلطنة العثمانية مهددة بالسقوط أمام قوات ابراهيم باشا ، تأهبت روسيا لارسال جيش للدفاع عن الامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة أونكيار اسكلسى الموقعة بينهما فى عام ١٨٣٣ (٧٣) . ولكن فى ٢٧ يوليو عام ١٨٣٩ قدم سفراء الدول الخمس الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا) مذكرة مشتركة إلى الباب العالى ، يطلبون فيها منه ألا يعقد أى اتفاق مع محمد على دون موافقة الدول الأوروبية . وكان اشتراك فرنسا فى المذكرة من الأمور

الغربية ، إلا أنها أرادت باشتراكها هذا أن تحول دون انفراد روسيا بحماية الدولة العثمانية . كما كان انضمام روسيا المفاجىء إلى جانب الدول بمثابة ضربة موجهة للسياسة الفرنسية جعلتها تضطرب وتحار فى تلك السياسية . ولما لم تستطع انجلترا أن تقنع فرنسا بما اعتزمت منحه لمحمد على من ولاية مصر وولاية عكا ، لجأت روسيا إلى انجلترا وأظهرت استعدادها للموافقة على هذا الحل . وأرادت روسيا بذلك أن تعزل فرنسا وأن تشترك الدول الأربع الأخرى فى تقرير مصير هذا النزاع بعقد مؤتمر لتلك الدول الأربع فى لندن . ولكن محمد على قرر خوض المعركة حتى النهاية ، مهما كانت الظروف والاحتمالات ولو اضطر إلى محاربة الحلفاء الخمسة . عندئذ فكر فى التعبئة العامة فى لبنان وفى تعميم التجنيد الاجبارى على الموارنة الذين كانوا معفيين منه وبلغ عددهم مائتين وخمسين ألفاً (٧٤) .

وفى مطلع عام ١٨٤٠ شاع خبر عزم الحكومة المصرية على تجنيد النصارى فى لبنان . واستغل جواسيس وعملاء انجلترا هذه الأخبار لإثارة هواجس الموارنة ومخاوفهم مغتنمين كل الفرص والمظاهر لإشاعة القلق . ومن الحوادث التى استغلها خصوم محمد على إلى أقصى حد إشاعة اعتقاله فى مصر للتلاميذ اللبنانيين النصارى فى مدرسة الطب وتجنيدهم فى العسكر النظامى . ولما ذاع هذا الخبر فى لبنان ثبت الموارنة فى اعتقادهم أن الحكم المصرى عازم على تجنيد شبابهم.واتفق أن وصل إلى بيروت فى تلك الأثناء مركب مشحون بملابس عسكرية ، فأشيع أنها معدة لشبان النصارى اللبنانيين فاشتدت مخاوفهم من التجنيد (٧٥) . وفى أوائل مارس عام ١٨٤٠ اتفق نصارى دير القمر سراً مع دروز الشوف والمناصف على مقاومة التجنيد ونبذ الحكم المصرى فيما لو أعلن هذا التجنيد . وعندما علم الأمير بشير الثانى بذلك حذر الناس وكتب إلى أهالى بسكنتا يقول : «بعد الشوق بلغنا ان جهال دير القمر قد ارسلوا لكم مكاتيب لاجل يغشوكم كما غشوا ذواتهم لكى يرموكم تحت اغبرار الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتوهم ولكن رأفة بكم وخشية لئلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار

هذا الامر اليكم نحذركم وننصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذى يوجب خراب الديار وقلع الاثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالا اطردوهم او ارموا عليهم القبض وارسلوهم بطرفنا يكون معلومكم» (٧٦) . ولما علم ابراهيم باشا باتحاد النصارى والدروز ، أصدر فى ٦ مايو عام ١٨٤٠ أمراً بجمع السلاح الذى كان قد وزعه على النصارى كهبة لهم ولذريتهم . وعلى اثر ذلك دارت مفاوضات بين نصارى دير القمر وسائر المقاطعات ، وقرر الجميع مقاومة نزع السلاح ، وانطلق مائة رجل من دير القمر وطردوا قائد الحملة الذى أرسله الأمير بشير الثانى بناء على أوامر ابراهيم باشا لجمع السلاح من نصارى المناصف والشحار (٧٧) .

تحرك أهالى دير القمر نصارى ودروزاً وبعثوا برسائل وكتابات إلى النصارى والدروز والمسلمين والشيعة فى كل الجبال يندون فيها بتدابير محمد على ويحرضونهم على مناهضة الحكم المصرى . وانحدر أهالى دير القمر إلى ساحل صيدا وقطعوا الطرقات لمنع تحرك قوات ابراهيم باشا وحاصروها فى صيدا . وبادر الأمير بشير الثانى إلى معالجة الأمر وتطويق الفتنة ، فتمكن بالحيلة والإقناع من إعادة أهالى دير القمر من سواحل صيدا إلى بلدتهم . ثم عمل على الفصل بين النصارى ودروز الشوف والعرقوب والغرب الفوقانى والجرد مستخدماً الإغراء بالمال والوعود ، فاستمال الدروز واتخذهم أخصاء له ومدهم بالسلاح (٧٨) . ونتيجة لذلك ، خمدت الحركة فى دير القمر والمناطق المذكورة وساحل صيدا ولكنها هبت فى المتن والشحار والغرب التحتانى وكسروان وقاطع بيت شباب وبكفيا ، ونهض أهالى هذه المناطق ونزلوا إلى سواحل بيروت وحاصروا القوات المصرية فيها . فأرسل الأمير بشير الثانى إليهم ابنه الأمير أمين ليفاوضهم ويقنعهم بالكف عن الثورة فأوضحوا له مطالبهم وشروطهم وسجلوها فى صلك خطى . وكانت أهم مطالبهم : منع دخول جيش غريب إلى لبنان ، ورفع الظلم عنهم ، واطلاق حريتهم فى نقل السلاح ، وألا يؤخذ منهم نظام (أى لا يجندوا) ، وأن لا يكرهوا على العمل فى المعادن وعلى السخرة ، وألا يدفعوا إلا

مالا واحداً ، وأن يتخذ الأمير بشير له مستشارين فى ديوانه من كل طائفة اثنين (٧٩) . وطلب الثوار توقيع هذا الصك من محمد على كتعهد منه بقبول الشروط ؛ كما طلبوا كذلك أن يضمن قناصل الدول الأوروبية فى بيروت وصيدا هذه الشروط والحيلولة دون اخلال محمد على بوعوده . وأجابهم الأمير أمين بأنه يمكنهم الاحتفاظ بالسلاح . وأن نظام التجنيد الإجبارى فى عسكر مصر النظامى لا يسرى عليهم . أما بقية الشروط ، فتعهد أن ينظر فيها الأمير بشير الثانى ومحمد على . ولكن الأمير بشير رفض تلك المطالب مما دفع المجتمعين فى البوشرية والشياح على المضى فى ثورتهم . وحاول سليمان باشا الفرنساوى ، قائد القوات المصرية فى بيروت . اقناع الثوار باذلا لهم الوعود ، لكنهم أجابوه بأنهم لا يصدقون وعود محمد على وابنه «وانهم يفضلون الموت على الظلم» (٨٠) . وعلى أية حال ، كانت النقمة عامة على الحكم المصرى ، فوصفها بوريه (Bourée) . قنصل فرنسا فى بيروت ، فى تقريره المؤرخ ١٤ يونيو عام ١٨٤٠ بقوله : «لا يوجد فى لبنان رجل ولا أمير ، ما خلا الأمير بشير ، غير مستعد لدى أول تحريض لأن يسد بوجه ابراهيم باشا وكل جيوشه المصرية مداخل الجبل» (٨١).

وفى ٧ يونيو عام ١٨٤٠ ، اجتمع اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم ونحلهم فى كنيسة مار إلياس أنطلياس ، ووقعوا اتفاقية جاء فيها : «انه يوم تاريخه قد حضرنا إلى مارى الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا بوجه العموم من دروز ونصارى ومتاولة واسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرر احد منا أبدا بل يكون القول واحد والرأى واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدث منا وبان ادنى خلل نكون بارين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والخطوط الخمسة وتكون نساؤنا طالقة من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه وايضا يشهد علينا القديس مار الياس ويكون خصمنا وقد اقمنا علينا شيخا جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذى نخون منا يكون

مار الياس خصمه و لا يكون له موتة على دين المسيح » (٨٢) . واندلعت الثورة وعمت زحلة وبعلبك وانضم إليها أهل شمالى لبنان وبعض الكسروانيين. وحاول الثوار اللجوء إلى فرنسا للحصول على تأييدها ولكن فرنسا اتخذت موقف الوسيط بين الطرفين فأرسلت عدة بعثات إلى كل من محمد على والموارنة . وبينما كانت فرنسا تحث محمد على على الحلم والتساهل والوفاق مع اللبنانيين ، فإنها كانت تحض الموارنة على الهدوء والتأنى والحكمة وتحذرهم من مغبة الثورة على محمد على (٨٣) . أما الدول الأوروبية الأخرى ولا سيما انجلترا ، فقد أمدت الثوار بالمال والسلاح . ولم يقتصر هذا الأمر على ممثلى انجلترا السياسيين ، بل قام أفراد بريطانيون كاللورد إدجرتون (Edgerton) واللورد ألفينى (Alveney) بانزال ثمانمائة بندقية وكمية ضخمة من الذخيرة والعتاد للثوار فى ميناء جونية . كما أنفقت بعثة وود فى لبنان فى عام ١٨٤٠ مالا يقل عن تسعمائة ألف فرنك (٨٤) . وقرر محمد على ارسال عباس باشا إلى لبنان ومعه قوة تبلغ اثنى عشر ألف مقاتل ، فوصل بيروت فى ٢٧ يونيو عام ١٨٤٠ . وطوقت القوات المصرية جبل لبنان براً وبحراً من كل الجهات وزحفت عليه . فانسحب الدروز من المعركة التى انتهت بانتصار القوات المصرية . وفى منتصف يوليو هاجمت القوات المصرية القرى الواقعة بجوار بيروت وهى المكلس والمنصورية وبيت مرى وبطشية ووادى شحرور فنهبوها وأعملوا فيها السيف والنار فتبدد شمل الثوار وانقطعوا عن القتال . وقام الأمير بشير الثانى بجمع السلاح ومطاردة الزعماء والقبض عليهم وارسالهم إلى الاسكندرية (٨٥) .

ولقد حسمت أخبار الثورة الواردة من لبنان المفاوضات الدائرة بين انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا فى لندن ، وعجلت بتوقيع معاهدة لندن فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ . وهكذا أعطت الأموال التى انفقت فى لبنان ثمارها . ولم يعد وضع محمد على بعيد المنال . وتعهدت الدول الأوروبية بمقتضى هذه المعاهدة بمساعدة السلطان فعلا فى اخضاع محمد على ، وتضمن

الملحق المرفق بالمعاهدة المسائل التى تعهد السلطان بعرضها على محمد على وهى أن يخول محمد على حكومة مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته ، وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلى بقيود متينة تربطها بالدولة مثل الجزية وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب وضرب النقود . فإذا لم يقبل هذه الشروط فى عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل كان للسلطان الحق فى اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه . وهكذا لم تعد التضحية مسألة انتصار الباب العالى على وال متمرد بل مسألة وصاية صارمة فرضتها أوروبا المتحالفة على الامبراطورية العثمانية كلها ، بما فيها مصر وسورية وفلسطين . وفى الواقع عقدت الدول الأوروبية المتحالفة عزمها على القيام بعمل عسكرى سريع فى سورية لإضعاف قوة محمد على . وقد ناقش تيير (Thiers) ، وزير خارجية فرنسا ، هذه الناحية فى مذكرة وجهها إلى بامستون وأبدى فيها استغرابه لادعاء انجلترا بأنها تريد إحلال السلام فى الشرق بينما تثير القلاقل فى المنطقة عن طريق امداد أهالى لبنان بالمال والسلاح للتمرد على الحكومة المصرية (٨٦) . ولكى تتدارك فرنسا تدخلا من قبل الحلفاء فى سورية ، أرسلت بتعليمات دقيقة إلى قنصلها فى الاسكندرية لحث محمد على على بذل كل جهد من أجل ضمان ملكية سورية مهما بلغ الثمن حتى يبطل مفعول معاهدة لندن . وجاء فى تلك التعليمات أنه «إذا تمكن الوالى من إحلال السلام فى لبنان ، وجعل الاسكندرية وعكا فى مأمن من كل هجوم ، وحشد جيوشه فى سورية تمسك بزمامها وفى سفوح جبال طوروس ليكون مستعداً لصد أعدائه والتهديد بالانقضاض عليهم ، حتى لا يصبح عندئذ فى وضع ينال منه أحد ، ولا مجال إلى إضعافه أو إرغامه على أى شىء ، ولسقطت مشاريع البلاطات الأربعة ، ذلك أن هذه الدول لا تملك أية وسيلة ضغط مباشرة لارغامه على أى تنازل . وعندئذ تتحقق أهدافه وأهدافنا . ولكن الأمر لن يكون كذلك إذا اتبع محمد على عواطفه العدائية وسعى إلى أكثر من ذلك ، بدل أن ينتهج هذه السياسة الرزينة ..» (٨٧) .

على أية حال ، اكتملت هزيمة مصر الدبلوماسية فى لندن بالرغم من تشدد فرنسا . وتتابعت الأحداث بسرعة هائلة ، وعين السلطان العثمانى عزت باشا قائداً أعلى لقوات البر والبحر مكلفاً إياه طرد محمد على من سورية ولبنان . وسار الأسطول العثمانى وعلى ظهره ستة آلاف رجل من البوسفور إلى قبرص حيث اجتمع بأسطول الحلفاء (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) . وفى أوائل أغسطس عام ١٨٤٠ ، ظهرت أمام بيروت أربع سفن من الأسطول البريطانى يقودها الكومودور شارل نابيير (Napier) الذى أعلن أنه جاء لإنقاذ الأهالى من النير المصرى ، ودعاهم إلى الثورة على هذا الحكم الذى أفقرهم . وجاء فى بيان نابيير ما يلى :

«أيها السوريون : ان بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا بالاتفاق مع عظمة السلطان قد اتفقت جميعاً على انهاء حكم محمد على فى سورية . وقد أرسلت على رأس قوة بحرية متقدمة لاساعد فى إزالة نير الحكم الذى بسطه باشا مصر على هذه البلاد .

انكم تعلمون أنه قد صدر عن عظمة السلطان « خط شريف » يضمن سلامة رعاياه وضمان ممتلكاتهم ، وينطبق مفعول هذا« الخط الشريف» على جميع أجزاء الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك هذه البلاد بالذات. كما أن الدول الحليفة قد رفعت توصية إلى عظمة السلطان من شأنها أن توفر لكم الخير والراحة .

ياأهالى لبنان الذين تسنى لى أن أراكم من على ظهر بارجتى ، أدعوكم إلى الثورة وإلى خلع نير الظلم الذى تئنون تحت ثقله . وانا نتوقع بين ساعة وأخرى وصول الجنود والسلاح والذخيرة من استانبول ، سنحمى شاطئكم من هجمات الجيش المصرى إذا ما حاول ازعاجكم .

ياجنود السلطان ، انتم يامن أخرجتم من بيوتكم وديارهم بالمكر والخديعة وقذفوا بكم لتحاربوا فى رمال مصر الحارقة ، ومن ثم نقلوكم إلى سورية ،

انني أدعوكم باسم الدول الحليفة العظمى إلى أن تعودوا إلى ولائكم القديم ، إلى احضان السلطان . هذا واننا سنتغاضى عن الأحداث التى وقعت ، وسوف نتناساها . كما أنه ستدفع لكم مرتباتكم المتأخرة التى لم تدفع .. »(٨٨)

ومن ناحية أخرى . أخذ نابيير يعمل مع وود ومور . تتصل انجلترا فى بيروت على إثارة اللبنانيين . واتصل الثلاثة بالأمير بشير الثانى وحضوه على الانفصال عن محمد على متقدمين باسم الحكومة البريطانية ضمانات تتعلق باستقلال لبنان وحريات الموارنة والدروز (٨٩). وكتب ريتشارد وود إلى الأمير بشير الثانى ليضمن انضمامه إلى جانب الدول الكبرى خلال عمليات اخراج المصريين من الشام بالقوة محذراً من الاعتماد على قوة مصر أو تأييد فرنسا لمناضد رغبة الدول الأوروبية الكبرى . وجاء فى تلك الرسالة

«والأمس حضرة لهنا من الاستانة العالية فركاتا (٩٠) انكليز دغرى ، وبرفقتها حضر لسعادتكم فرمان شريف خاقانى عليه (٩١) سعادة آلشى (٩٢) دولة الانكليز الذى منطوقه السامى تثبيت سعادتكم متوليا من قبل دولته على المقاطعاة جميعاً الذين تحت حوذة سعادتكم الآن . كما انه ممنوح به أيضا صفو الخاطر (الملوكى) لنحو سعادتكم .

« وكامل ماهو محتويه هذا الفرمان الشريف فهو مثبت اجراه حيث إنه كاين بواسطة (الشى) دولتنا (المحترمة) . (وسعادة) اجناب كافلا بموجب وظيفته من قبل الدولة الانكليزية المعظمة لأجل كلما يحتويه هذا الفرمان المشار اليه بما يختص بصالح سعادتكم . ولم ارتضينا نوجهه الان خشيتنا من انه ينحاش (٩٣) من احد او يفقد ، بل قصدنا نعرض عنه لسعادتكم لاجل ان (تبعثوا) معتمد معلوم لنسلمه اياه .

«والاوفق أن يكون مصحوب بمشرفة أيضاً لأن الان صار مقتضى ان سعادتكم (ترموا) ميلكم فى جهة الدولة العلية بكل حرية حيث ان هذه الدولة العثمانية الآن مشهور خاطرها لنحو سعادتكم ، ومحاضة بالاسعاف من الأربعة دول (القوين) (٩٤) باروبا لتأييد مرغوباتها .

« فا اذاً لم بقى ادنا شبها التى توجب الخوف من أن محمد على باشا يفوز بمرغوبه ضد كل هذه (القواة) الملوكية فلابد لكل ذكى الذى اخصهم سعادتكم ، يلاحظ قوة هذا الظرف ، وانه لابد عن نفوذ ما قد حتموا برأيهم به ذوى القواة الملوكية المتحدة .

«ونظن ان يوافق سعادتكم أكثر الحصول على الحرية وأن تكون الاحكام منزهاعن كل يد بل متصلة من الباب الملوكى ومثبتة تحت مناظرة أربعة ملوك الاقوياء باروبيا ، ولا تكون تابعة اى باشا الذى حاصل الحظر المبين الى التأخير وعدم النفوذ لاله ولا إلى المتولين من قبله . وهذا الشرف مختص كما اعرضنا من البداية بذات سعادتكم حسب الميل والحب ، وليس الى البلاد لانها صارة بحساب الميل والحب، وليس إلى البلاد لانها صارة بحساب تحت طاعة وأحكام الدولة (العثمانية) من حينما بقى رأى راى الملوك (على) ذلك..» (٩٥)

وتوالت عروض الانجليز والعثمانيين على الأمير بشير الثانى للانفصال عن ابراهيم باشا وأبيه ، وتعهدوا له بأنه إذا لبى مطالبهم يبقونه والياً كما كان وتكون الولاية على الجبل له ولذريته من بعده . ولكن بشير لم يتأثر بهذه العروض وأجاب «معتذراً بوجود أولاده وأحفاده بين عساكر ابراهيم باشا ومغتراً بأخبار الفرنساوية أن مراكبهم قادمة لاسعاف العزيز» (٩٦) .ووجه الأمير بشير الثانى فى ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ تحذيراً وتهديداً لكل من يتصل بالإنجليز وحلفائهم أو يتعامل معهم بأى شكل من الأشكال .

ورغم موقف الأمير بشير الثانى ، فقد بذلت الجهود لإثارة جبل لبنان لضرب معنويات المسئولين المصريين واجبارهم على الاستسلام . وتقرر مصير سورية فى شهر سبتمبر إثر قصف بيروت وإنزال القوات الحليفة فيها وثورة الموارنة التى أعقبت ذلك . ولكن ما كانت المجابهة المسلحة لتنجح لو لم تمهد العملاء لذلك بنجاح فى أوساط أهالى الجبل . فجرى توزيع المال والسلاح على أهالى جبل لبنان على يد عملاء أخصائيين ومبشرين

بروتستانت وكاثوليك . فوضع الأب اليسوعى ريلو (Ryllo) نفسه فى خدمة قضية النمسا والحلفاء لدى الموارنة . وكانت علاقاته مع الضباط الإنجليز والعملاء العثمانيين حديث الجميع ، بالرغم من أن رئيسه العام الأب روثكان (Roothcan) نصحه فى ١٢ سبتمبر بالتزام الحذر الشديد . واعتقد انه يخدم فى نفس الوقت قضية رهبانيته وقضية الحلفاء فأخذ يوزع السلاح على الموارنة متوخياً من ذلك أن يحصل من الباب العالى على تصريح ببناء دير فى بيروت . وعلم المصريون بنشاطاته السياسية والعسكرية فأعلنوا عن جائزة لمن يأتى به حياً أو ميتاً . ونتيجة لتأثير دعاية هذا الأب اليسوعى ، اعتقد الجبليون اللبنانيون بأنهم يتطوعون فى حرب مقدسة ضد إدارة ابراهيم باشا . ولكن فرنسا لم تغفر له هذه الخيانة ، فجندت اللعازاريين من باريس لصالح محمد على . فأرسل الأب إتيان ، المسئول العام عن المرسلين اللعازاريين ، إلى لبنان ليحارب نفوذ اليسوعى ريلو (٩٧) . إلا أن تدخل الدبلوماسية الفرنسية المتأخرة لم يوقف ثورة الموارنة التى اتسع نطاقها فى أواخر سبتمبر عام ١٨٤٠ .

وبينما كانت حكومات أوروبا تناقش مصير محمد على ، تسارعت الأحداث فى لبنان . فقد نزلت قوات الحلفاء إلى البر وأقامت معسكراً حصيناً بين بيروت وجونية على مصب نهر الكلب . ومن هناك وزع فى غضون بضعة أيام ١٢,٠٠٠ بندقية مما أدى إلى تمرد حوالى ١٤,٠٠٠ من سكان الجبل (٩٨) . وفقد الأمير بشير الثانى كل أمل بعد سقوط بيروت ، فلما رأى رجحان كفة الحلفاء واتفاق كلمة أهل البلاد على مقاومة ابراهيم باشا قال لحنا بحرى الذى كان حينئذ فى بيت الدين «قوم روح لعند باشتك وقل له لم عاد فائدة البلاد صارت جميعها صوت واحد»(٩٩). وفى ١١ اكتوبر عام ١٨٤٠ غادر الأمير بشير الثانى بيت الدين ، كرسى ولايته ، مستصحباً أولاده الثلاثة وزوجته إلى صيدا ، ولكن الكومودور نابيير لم يرض بهذا الاستسلام وطلب ارساله إلى بيروت فسيروه بحراً إليها . ولما واجه السر عسكر عزت باشا خيره أن يختار محلا لإقامته ما عدا

فرنسا وسورية ومصر ، فاختار جزيرة مالطة ، فأذن له وسافر من صيدا إليها بصحبة أولاده وأحفاده وزوجته ومدبره بطرس كرامة ونحو سبعين رجلا من أمنائه وخدمه واستبقت له الحكومة أملاكه فى لبنان وحمل معه أمواله . وكان السلطان عبد المجيد قد أصدر فى ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ فرماناً بتعيين الأمير بشير قاسم (بشير الثالث) خلفاً للأمير بشير الثانى فى حكم الجبل بسبب تأييده ومناصرته لمحمد على . وبعد أحد عشر شهراً انتقل الأمير بشير الثانى من مالطة إلى الآستانة حيث توفى بها فى عام ١٨٥٠ .

وفى العاشر من أكتوبر منى الجيش المصرى بهزيمة فادحة فى قلعة ميدان. فتراجع إلى لبنان ثم إلى دمشق حيث تأهب ابراهيم باشا لتنظيم المقاومة . لكن الحلفاء قصفوا عكا فسقطت فوراً فى ٤ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وكان للخيانة دور فى هذا الانتصار الصاعق وخاصة خيانة المهندس الإيطالى ديلكازينو المسئول عن تحصينات المدينة الذى انضم إلى الأعداء وزودهم بالخطط الدفاعية . وبسقوط عكا انتهى وجود مصر فى سورية وسلمت يافا ونابلس . وبعد أن تم للحلفاء احتلال الثغور السورية أرسل الأميرال ستوبفورد (Stopford) ، القائد العام لقوات الحلفاء ، بعض السفن الحربية الانجليزية بقيادة نابيير إلى الاسكندرية لتهديد محمد على وارغامه على قبول مطالب الدول . ولكن لما تبين نابيير أنه لا سبيل إلى اخضاع محمد على بالقوة ، فضل الاتصال به . ولم يجد محمد على بداً من التسليم وخاصة بعد أن تخلت فرنسا عنه وانهارت قوته المعنوية بعد سقوط عكا . فاتفق نابيير مع الحكومة المصرية على تسليم الأسطول العثمانى وإخلاء سورية ، مقابل أن تضمن الدول لمحمد على حكومة مصر وراثية وألا تمس سواحل مصر بسوء ؛ وتم توقيع هذا الاتفاق فى ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وقد رفض السلطان العثمانى الاعتراف بنص هذا الاتفاق ، ولم يقره بونسنبى ، سفير انجلترا فى استانبول ، ولكن بامستون وافق عليه . وفى هذا الوقت بدأ ابراهيم باشا بناء على أوامر محمد على فى الجلاء عن سورية ، ونتيجة لتدخل الدول أرسل السلطان إلى محمد على فرمان يونيو عام ١٨٤١ الذى تقرر فيه إعطاء

محمد على وأسرته حكومة مصر وراثية . وبذلك كانت خاتمة الأمير بشير الثانى ، أمير لبنان ، مرتبطة بخاتمة حليفه ، وبقى جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحاً للمكائد والدسائس الدولية .

وهكذا طويت صحيفة الحكم المصرى فى الشام بجلاء القوات المصرية عنه ، وصار ماله وما عليه ملكاً للتاريخ . وقد تحدث مؤرخو سورية عن الحكم المصرى بمناسبة انقضاء عهده ، وأخذوا على السوريين واللبنانيين الاستجابة لدسائس الانجليز والعثمانيين وقيامهم فى وجه الإدارة المصرية . فكتب محمد كرد على يقول : «كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام أكثر من سيئاتها ، لأنها وضعت أصول الإدارة والجباية ورفعت أيدى أرباب الاقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الأمير بشير الثانى والى لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والأمراء المستبدين ..» (١٠٠) . وقال ميخائيل مشاقة : «كانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس إلى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز فى حوران ووادى التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقلاقل» . لقد أصلح الحكم المصرى الأمور المختلة ، وقضى على الفوضى والقلاقل التى كانت سائدة فى بلاد الشام ، وقد أدى ذلك إلى امتعاض «أصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) .. لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة ، وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لأنه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة

فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ؛ وهكذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة استبلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها ، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .. » .

حواشي البحث

١ — أسرة اسلامية سنية تنتمي إلى قبيلة قريش ، وقدموا مع الجيوش الإسلامية واستقروا فى حوران . ولقد وقفوا بجانب صلاح الدين الأيوبى فى حروبه ضد الصليبيين ، وتمكنوا من الاستيلاء على منطقة وادى التيم من الصليبيين . وفى عهد الملك الصالح أيوب تغلبوا على الصليبيين فأقطعهم عدة اقطاعات فى سهل البقاع . وتحالفوا مع المعنيين ضد الافرنج ، ووقفوا إلى جانبهم ضد اليمنية لأنهم كانوا من القيسية . ولما تسلموا زمام الأمر فى لبنان تقربوا إلى نصارى بلادهم ، وخاصة الموارنة ، واستعانوا بهم كمديرين وكتبة ومدبرى أحكام. ولكثرة اختلاطهم بهم وقفوا على مبادىء الدين المسيحى وتعاليمه ودانوا به الواحد تلو الآخر .

٢ — بعد موقعة عين داره عام ١٧١١ ، انقسم القيسيون فيما بينهم إلى حزبين : جنبلاطية ويزبكية . ونتيجة لذلك حدث انقسام بين الدروز والمسيحيين والمسلمين ، ولكن هذا الانقسام لم يؤد إلى تحيز أى حزب إلى الشهابيين أو ضدهم على الرغم من أن هذه الأحزاب قد تتورط فى تأييد فرد من الأسرة ضد فرد آخر . وينتسب آل يزبك إلى زعيم من آل عماد وهم أسرة درزية جاءت أصلا من منطقة الموصل . ومنشأ الانقسام أن الشيخ على جنبلاط كان قد بلغ من النفوذ حداً أزعج أمير الجبل يوسف شهاب ، فأوقع الأمير بينه وبين الشيخ عبد السلام العماد ، وهو زعيم أسرة إقطاعية أخرى كبيرة ، وتحزب الناس بينهما ، فدعى أتباع جنبلاط : جنبلاطية ودعى أتباع العماد يزبكية نسبة إلى الجد الأعلى للشيخ العماد وهو يزبك . (انظر : أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى لسورية فى العهد

العثمانى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٧٣) .

٣ — عن هذه التطورات انظر : أحمد طربين ، أزمة الحكم فى لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (١٨٤٢ — ١٨٦١) ، دمشق ، ١٩٦٦ .

٤ — فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ (ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة) بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٥٠٢ .

٥ — كانت تعاليم محمد بن عبد الوهاب تدور حول مسائل رئيسية هى : التأكيد بأن المعتقدات الإسلامية تقوم على ما جاء فى القرآن ، ونبذ كافة المعتقدت التى أدخلت على السنة ، ورفض السيطرة الروحية التى تدعيها الخلافة العثمانية أو أية خلافة أخرى ، والامتناع عن توقير أشراف مكة أو الأسياد (سلالة النبى) أو أولياء الله أو الدراويش ، وإعادة النظام فى مسألة العبادة والصوم والحج ، وتحريم قاطع للخمر والدخان واللهو والسحر ولبس الحرير أو تزيين الملابس بالذهب ، أو إقامة القباب فوق الأضرحة .

٦ — بدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته بجدال أبيه وقومه ، وكان موضع الجدال «الوحدانية» رسالة الاسلام وفكرته الأساسية . ولهذا السبب أطلق ابن عبد الوهاب على نفسه وعلى أتباعه اسم «الموحدين» . أما اسم «الوهابية» فقد أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوروبيون ثم جرى على الألسن .

٧ — وثائق عابدين : محفظة بحراً براً وثيقة (٨) نقلا عن : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الدولة السعودية الأولى ، معهد البحوث والدراسات بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .

٨ — حيدر الشهابى ، لبنان فى عهد الشهابيين ، نشر أسد رستم وفؤاد أفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

٩ — انظر نص القائمة المحررة لرجاء توجيه إيالة الشام لعهدة يوسف كنج فى : عبد العزيز نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ — ١٩٢٠) ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ — ١٩٤ .

١٠ — انظر نص القائمة المحررة إلى الباب العالى فى : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٩ — ٣٧٣ .

١١ — انظر : عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٧ — ١٩١ .

١٢ — يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج ١/٤٥٥ — ٤٥٨ .

١٣ — المرجع السابق ، ج ١/٤٦٠ .

١٤ — حيدر أحمد الشهابى ، لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين ، القسم الثالث : لبنان فى عهد الأمير بشير الثانى ، منشورات الجامعة اللبنانية رقم ١٧ ، نشر وتحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٧٢٠ .

١٥ — المصدر السابق ، ص ٧٢٤ — ٧٢٥ .

١٦ — حيدر أحمد الشهابى ، تاريخ أحمد باشا الجزار ، نشره أنطونيوس شبلى وأغناطيوس خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٩٩ — ٣١٦ .

١٧ — عن صلة المعلم نقولا الترك الواشجة بمصر انظر : عمر عبد العزيز عمر ، عبد الرحمن الجبرتى ونقولا الترك — دراسة مقارنة ، منشورات جامعة بيروت العربية (تحت الطبع) .

١٨ — نائب الوالى وكان يحكم مصر أثناء غيابه .

١٩ — حيدر أحمد الشهابى ، لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين ، ج ٣/٧٣٤ .

٢٠ — المصدر السابق ، ص ٧٣٥ — ٧٣٦ .

٢١ — المصدر السابق ، ص ٧٣٧ — ٧٣٩ .

٢٢ — محمد على إلى عبد الله باشا ، ٩ رجب ١٢٣٩ هـ فى أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية ، بيروت ، ١٩٤٠ ، ج ١/٥٩ — ٦٠ .

٢٣ — حيدر الشهابى ، المصدر السابق ، ص ٧٥٤ — ٧٥٦ .

٢٤ — رستم باز ، مذكرات رستم باز ، تحقيق فؤاد أفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣ .

٢٥ — بولس قرألى ، المجلة السورية ، مايو ١٩٢٧ ، ص ٢٦٨ .

٢٦ — حيدر الشهابى ، المصدر السابق ، ص ٧٦٤ — ٧٦٥ .

٢٧ — M. Sabry, *L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et La Question d'Orient*, Paris, 1930, pp. 44 — 46.

٢٨ — Sabry, *op. cit.*, pp. 112—113.

٢٩ — Sabry, *op. cit.*, p. 180.

٣٠ — *Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer*, p. 50.

نقلا عن كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٩٣ .

٣١ — حيدر أحمد الشهابى ، لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين ، ص ٨١٨ — ٨١٩ .

٣٢ — المصدر السابق ، ص ٨١٩ .

٣٣ — G. Douin, *La Mission du Baron de Boislecomte*, Cairo, 1927, pp. 249— 50.

٣٤ — H. Dodwell, *The Founder of Modern Egypt*, Cambridge,1967, p.127.

٣٥ — أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ — ١٨٤١ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٠ .

٣٦ — أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، وثيقة رقم ٦١٦٦ ، ج ٤/٢٨٥ — ٢٨٦ .

٣٧ — مراكز الدرك .

٣٨ — حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٢٥ — ٨٢٦ .

٣٩ — المصدر السابق ، ص ٨٢٨ — ٨٣١ .

٤٠ — المصدر السابق ، ص ٨٣١ .

٤١ — أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، ج ١ /١٣٥ .

٤٢ — انظر : حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٣٢ .

٤٣ — المصدر السابق ، ص ٨٤٦ .

٤٤ — عن ولاء الأمير بشير لمحمد علي وابراهيم انظر : أسد رستم ، المصدر السابق ، ج ١ /٢١٦ — ٢١٨ .

٤٥ — نشر هذه الكتابات السرية في خزانة بكركي بولس قرألي في : المجلة السورية ، السنة ٣ (١٩٢٨) ، ج ٩ (ديسمبر) ، ص ٥٩٧ .

٤٦ — Sabry, *op. cit.*, p. 201.

٤٧ — راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٨ — ٧٥ .

٤٨ — انظر : سليمان أبو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

٤٩ — أطلق عليه لقب «حكمدار عربستان» لأنه أثناء السنوات الأولى كان يتولى إدارة الإيالات السورية جميعها (انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢) .

٥٠ — F. Perrier, *La Syrie sous le Gourvernment de Mehmet Ali*, Paris, 1840, p. 53.

٥١ — Perrier, *op. cit.*, p. 57.

٥٢ — كتاب «حروب ابراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول»، جـ ١ /٣٧ — ٣٨ نقلا عن سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ — ١٣٧ .

٥٣ — أسد رستم . الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ، جـ ١ /٧٦ .

٥٤ — المرجع السابق ، جـ ١ /٨٧ — ٨٨ .

٥٥ — أسد رستم . بشير بين السلطان والعزيز ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

٥٦ — المرجع السابق ، ص ١٠١ .

٥٧ — أسد رستم . المحفوظات الملكية ، جـ ٢ /١١٧ .

٥٨ — المصدر السابق ، جـ ٤ /٤٧٢ — ٤٧٣ .

٥٩ — المصدر السابق ، جـ ٤ /٤١٥ — ٤١٦ .

٦٠ — انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ /٣٨٦ — ٣٨٧ .

٦١ — سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

٦٢ — «الفردة» أو «الفرضة» هو مافرضته الإدارة المصرية على الذكور من مختلف المذاهب البالغين من العمر من خمس عشرة سنة إلى ستين سنة ، وكانت قيمتها ١٢٪ من دخل المكلفين ، ولهذا كان يختلف مقدارها بحسب اختلاف درجات دخل المكلفين . وكان لها حدان أعلى وأدنى ، فلا تزيد عن خمسمائة قرش على المكلف الثرى ولا تنقص عن خمسة عشر قرشاً على المكلف الفقير . وقد كانت الفردة من أهم مصادر الدخل لخزينة محمد على فى سورية ، وكان يقوم بتقديرها وتوزيعها على طبقات المكلفين ديوان المشورة ، لكن الشكوى كانت كثيرة من المحاباة فى التوزيع . وتضاعفت الشكوى إذ أخذ عدد المكلفين بالتناقص بسبب الوفيات والتجنيد والهجرة

لأن الرجال الباقين فى البلدة أو المقاطعة كانت الحكومة تكلفهم دفع ما كان مفروضاً على المتوفين والغائبين . (انظر :

A. Laurent, *Relation Historique des Affaires de Syrie de* 1840 à 1842, Paris, 1846, T. I, p. 15.

أما إذا زاد عدد المكلفين فى بلدة ما فكانت تزداد الضريبة بنسبة زيادة العدد . وكان يعفى من دفع الفردة رجال الدين والموظفون المدنيون والعسكريون ؛ كما أن الجنود لم يكونوا مطالبين بدفع الفردة فى أثناء تجنيدهم ، غير أن أهلهم أو مواطنيهم كانوا يكلفون بدفعها عنهم .

٦٣ — تقرير من أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا فى عكا ، إلى قنصل النمسا فى الاسكندرية بتاريخ ١٤ ديسمبر عام ١٨٣٣. انظر : المجلة البطريركية ، ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٤ .

٦٤ — نوفل نوفل ، كشف اللثام ، مخطوط بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ٤٨ نقلا عن : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

٦٥ — من كتافاكو ، قنصل النمسا فى صيدا ، إلى قنصل النمسا فى حلب فى ٧ يوليو عام ١٨٣٤ : المجلة البطريركية ، ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

٦٦ — المصدر السابق ، ص ٢٥٩ — ٢٦١ .

٦٧ — تقرير القنصل كتافاكو فى الأول من أكتوبر عام ١٨٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

٦٨ — تقرير القنصل كتافاكو فى ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

٦٩ — عن معركة اللجاه انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ص ١٩٤ — ٢٢٠ .

٧٠ — P. Dib. *Histoire de l'Eglise Maronite*, Beyrouth, 1962, T. II, pp. 261—264.

٧١ — ميخائيل مشاقة . مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، مخطوط بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ١٢٦ .

٧٢ — M. Jouplain, *La Question du Liban*, Paris, 1908, p. 197.

٧٣ — راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ، ص ٦٨ — ٧٥ .

٧٤ — M. Jouplain, *op. cit.*, p. 201.

٧٥ — يوسف مزهر . تاريخ لبنان العام ، جـ ١ /٤٩٥ .

٧٦ — المرجع السابق . جـ ١ /٤٩٦ .

٧٧ — بولس مسعد . جلاء المصريين عن لبنان وسوريا ، المجلة البطريركية . فبراير (شباط) ١٩٣٠ . ص ٧٦ — ٧٧ .

٧٨ — المرجع السابق . ص ٧٨ .

٧٩ — المرجع السابق . ص ٧٩ .

٨٠ — P. Dib., *op. cit.*, p. 270.

٨١ — P.Dib, *op. Cit.*, p. 268.

٨٢ — ابراهيم أبو سمرا غانم . أبو سمرا غانم ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ص ٤٨ .

٨٣ — Adel Ismail, *Histoire du Liban du XVIIs. à nos jours*, Beyrouth, 1958, T. IV, pp. 78—88.

٨٤ — A. Ismail, *Op. Cit.*, pp. 73—78.

٨٥ — يوسف مزهر ، المرجع السابق ، جـ ١ /٥٠٣ — ٥٠٤ .

٨٦ — F. Guizot, *Memoires pour servir à l'histoire de mon temps*, Paris, 1861—1864, p. 235.

٨٧ — Sabry, *op. cit.*, p. 501.

٨٨ — نقلا عن : زين نور الدين زين ، الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سورية ولبنان ، دار النهار النشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، حاشية رقم ٧ ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

P. Dib, *op. cit.*, pp. 287—288.

٩٠ — فرقاطة .

٩١ — على يد .

٩٢ — أليشى أو إلجى بمعنى سفير .

٩٣ — يمنع أى يحول دون وصوله .

٩٤ — يقصد الدول الكبرى .

٩٥ — انظر : أوراق لبنانية : ج ١ ، ١٩٥٥ ، ص ٣٧ — ٣٩ .

٩٦ — طنوس الشدياق : أخبار الأعيان. نشر فؤاد أفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٦٨ .

٩٧ — Sabry, *op. cit.*, p. 519.

٩٨ — R. Cattaui, *Le règne de Mohamed Ali d'après les archives russes en Egypte*, Vol. II, *la mission du Colonel Duhamel*, 1834— 1837, Société royale de géographie d'Egypte, publication spéciales, Pt. 2, Rome, 1935, pp. 496—498.

٩٩ — يوسف مزهر ، المرجع السابق . ج ١/٥١٥ .

١٠٠ — محمد كرد على ، خطط الشام : ج ٣/٦٦ .